محمود مبروك

مقدمـــة

قصص قصيرة عددها ستة؛ لكل منها طبيعة مختلفة، لكنها كلها من صميم الحياة.

عزيزي القارئ :

إذا أعجبتك القصة الأولي فلن تكون بحاجة إلى دعوة لكي تقرأ التالية، والتي تليها..

وإذا لم تعجبك؛ فإنني أدعوك لقراءة القصة التالية؛ فلها مذاق مختلف، أتمني أن يرضيك.

وإلى اللقاء

المؤلف

بـلا عــودة

بقدر ما كان الحب يرفرف على حياتهما، ويبشرهما بحياة سعيدة، لا ينغصها كدر ولا خلاف حين يتم زواجهما بعد تخرجها من الجامعة بعد عام، بقدر ما تردد في صدرها من نذير شؤم يوحي لها بأن حياتها مع عماد، لن تطول .. ولم تكن تري سببا لذلك إلا نزعة تشاؤمية كانت تغلف توقعاتها، ولم تقتنع بمبرر لها إلا معرفتها بحقيقة أننا نحن المصريون، حين نضحك كثيراً نتوقع حزناً قادماً، ونكرر عبارات مألوفة: اللهم أجعله خير .. أو: ربنا يستر، وكأننا نستكثر السعادة على أنفسنا ونري فيها مقدمة للألم والشقاء.

كانت خديجة تكن لعماد حبا وتقديرا كافيين لدفع عجلة الحياة أجيالاً، تطوي خلالها كل ما يعترضها من مشاكل الحياة الزوجية اليومية، وقادرين على تجاوز أي خلاف او ظرف غير موات لضيق مادي أو اختلاف في رأي.. وكانت تري في عينيه، وعلى لسانه أنه يبادلها نفس الشعور، ويتعجل الأيام حتى يجمعهما عش هادئ يحلمان به معاً، ويثق في قدرته على توفيره على المستوى الذي يتوافق مع ما يخططان له. لم تكن أسرته تتمتع بثراء متميز، ولكنها كانت في بحبوحة من العيش واستطاعت تكوين مدخرات لمواجهة زواج الأبناء الثلاثة والذي جاء ترتيب عماد، الأخير من بينهم، وبذلك لم تضن الأسرة في تأثيث الشقة المخصصة لعماد منذ خمسة عشر عاماً حين تم بناء عمارتهم ذات الستة طوابق والإثنتى عشرة شقة خصصت منها ثلاثة للأولاد الثلاثة وتركت خالية لحين زاوج كل منهم.. إضافة إلى مدخرات عماد نفسه من دخل وظيفته في إحدي البنوك الاستثمارية على مدى ثلاثة سنوات؛ كان خلالها يتقاضي راتبه فيحتجز منه مبلغا بسيطا كمصروف جيب ويودع

الباقي في حساب إدخاري حيث لم يكن مطلوبا منه تكليف مادي ما خلال إقامته مع أسرته.

أما عن خديجة فقد أصرت على عدم إتمام الزواج قبل تخرجها من كلية الآداب، ولم تخضع لضغوط عماد للإسراع في إتمامه، بمقولة ان التخرج خطوة شكلية معنوية لمجرد الحصول على مؤهل جامعي دون الحاجة إليه في التوظف وتحقيق دخل إضافي، فلقد اتفقا بشكل نهائي على أن تكون خديجة ربة بيت سعيد تقوم علي شئونه، بينما عماد بالعمل الخارجي وتحقيق الدخل وتوفير الاحتياجات المادية.. لكن خديجة خشيت الانشغال بعد الزواج بأشغال البيت وربما بحمل ووضع وغير ذلك فتستدرج لإهمال الدراسة ولم يتبق على تخرجها سوي عام واحد، فلتكن خطوات في اتجاه الزواج ومقدمات له، ولا أكثر. وكانت الخطبة حيث أتاحت لهما فرصة من فرص اللقاء العلني، وإن لم يكن والدها يشجع اللقاءات المنفردة قبل عقد القران .. ورغم ذلك أمكن تحقيق القليل من هذه اللقاءات تحت غطاء الجامعة وحضور المحاضرات أو بترتيبات خاصة باركتها الأم ثقة في أدب ابنتها وأخلاقها.

كانت اللحظات التى تجمعهما حالمة رومانسية، فيها رقة وعذوبة وتدقيق حذر في كل شيء بدءا من اختيار مكان اللقاء إلى اختيار التعبيرات.. كانا يفضلان الأماكن الكائنة على شاطئ النيل، وكانا يختاران التوقيتات التالية للغروب حيث يتيح لهما انسياب الماء من أسفل منهما وضوء القمر في السماء التى تظللهما خلفية رائعة تحقق صفاء النفوس، وخفقانا في القلوب، وتلاقيا رائعاً بين الأفكار، وكانا من الحين للحين، لا يكتفيان بشاطئ النيل وإنما كانا

– مع توجس خديجة – يستأجران فلوكة تضاعف إحساسهما باحتضان النيل لهما، ويستمدان من خلوده ثقة في حياة أبدية لهما معاً.

لاحظ الأب ما يتم خلف ظهره فخيرهما بين أمرين، وتوافق الإختيار الثاني مع مراد عماد، ولم يصطدم بممانعة من خديجة، ولا من أسرة عماد التي كانت مستعدة لذلك الإجراء ومتعجلة فيه .. وتم الاتفاق على الموعد، وعلى تفاصيل الحفل: المكان .. والمدعوين .. التكاليف، والمسئوليات وتوزيعها .. إلى أخر هذه الأمور المعقدة التى تمت على خير .. وأصبح الحبيبان، زوجين مع إيقاف التنفيذ.

بدأت خديجة تتعجل الأيام، وعماد يتحرق شوقا للزفاف .. ومع دفعه لها، قبلت خديجة اختصار الزمن الباقي إلى أن يتم الزفاف ليصبح فور انتهاء الإمتحانات دون انتظار للنتيجة، والذي كانت تصر عليه، من قبل لضمان النجاح، وخوفا من الرسوب في مادة أو مواد لا تضمن سماح ظروفها بعد الزواج بأداء الإمتحان فيها، وقد تعوق حصولها على الليسانس.

ومع بال مشغول باللقاء وترتيباته، وبالذوبان حبا وهياما، إستطاعت خديجة استخلاص ساعات ركزت فيها على الإستذكار، وكان تحدي النجاح حافزا للتحصيل .. وجاء الإمتحان فخاضته بروح الإختيار الوحيد، وأحست في كل يوم من أيامه برضا عن أدائها وتوقعاً لتحقيق التفوق، وليس مجرد النجاح.

وعلى أية حال، فقد انتهت أيام الإمتحان؛ كانت هي تستذكر وتحصل، أما أسرتها، وعماد وأسرته فقد كانوا يضعون اللمسات الأخيرة، لم يرجئوا منها سوى شراء فستان العرس والحذاء اللذين تم شراؤهما مساء امتحان أخر مادة.. وبعدها بيومين، كان الأهل والأصدقاء، والغناء والموسيقى، والعشاء التذكاري

وقبلات الوداع، والتوصيات لعماد برعايتها .. ثم انتقلت السيارات مع أصوات آلات التنبيه المتكررة إلى شقة العروسين. صعدت الأسرة معها، وأطلقوا الزغاريد بين جدران الشقة، وانسالت دموع الفرح، وبعضا من القلق والشوق المبكر، ثم انصرف الجميع، وأغلق الحبيبان باب المسكن لكي يبدآ حياتهما معا.

كانت أول ليلة يغلق عليهما باب، وينفردان في اطمئنان، مع علم الجميع وسعادتهم، ومع إحساسهما بأنهما لا يختلسان خلوة، وقبل ذلك وبعده مع رضا الخالق وتطبيق شرعه، اقترحت خديجة أن يستبدلا ملابسهما فيتوضآ ويصليان العشاء وركعتين شكرا لله الذي جمعهما على خير .. وبعد الصلاة كان لهما أن يستكملا وجبة العشاء ويتناولا مشروبا ساخنا، ثم يسترجعان حكاية حبهما، ويتندران على استراقهما، اللحظات الحلوة، ورسمهما الخطط لكي ينفردا دقائق تشهد لمسة يد، أو مجرد نظرات قل أن تتجاوز حدود العاطفة، وتلامس حدود الرغبة الإنسانية بين ذكر وأنثي.

إستمر استدعاؤهما للذكريات حتى وصلا إلى المحطة الأخيرة حيث كانا، يحوطهما دفء العاطفة والأبواب والنوافذ المغلقة، وبعض من باقات الزهور تنبعث منها روائح زكية، والإحساس بأمان الحلال، فكانت القبلات .. ثم اقترنت بالأحضان .. ازدادت حميميتها، واستحضرا شوق الشهور فارتفعت الحرارة، بأكثر من مسببات ارتفاعها في شهر يونيو، وكان لهما أن يسبرا غور الرغبة الحبيسة، فاستكملا كل صور المتعة النفسية والعاطفية والروحية والحسية .. منتهى السعادة وكل الرضا.. استوعب الليل الكثير من صور البهجة، وإن بدا قصيراً حتى بزغ نور الصباح.. تناولا الشاي وبعضاً من

الكعك والبسكويت، ثم استغرقا في نوم عميق، إستيقظا منه على طرق الباب ليجدا أسرة خديجة، ومعها مالذ وطاب من أصناف الطعام، فقضيا وقتاً قصيراً تخللته دقائق انفراد الأم بالعروس، إطمأنت فيها على سعادتها، ورضائها عن الزوج في اليوم الأول من الزواج.

إنصرفت الأسرة، وفور إغلاق الباب، سأل عماد عروسه بصوت تمتزج فيه الريبة والقلق وشيء من الحدة، عما دار بينها وبين والدتها، وعم سألتها الوالدة؟ وهل يليق أن تتحدث الأم فيما يخصهما وحدهما؟

إنزعجت خديجة من البداية المبكرة للشك، وللتحدث بما لا يليق عن والدتها فحذرت عماد من مغبة ذلك:

- أرجوك يا عماد .. إحنا متجوزين عن حب وما فيش حاجة تقتل الحب قد الشك .. لو كانت ماما كلمتنى في حاجة تخصك كنت حا صارحك بيها وبعدين أنا ما احبش انك تتعامل مع ماما على إنها حماتك، إحنا لسة بدرى قوي يا عماد . أرجوك يا حبيبي .. أرجوك ربنا يخليك.

وفوجئت خديجة بإصراره على الاستمرار في الحديث بنفس الوتيرة:

- يعني عايزة تقوليلي إنها كانت بتكلمك عن الأكل، والبسكويت؟ ولا بتسألك عن حالة الجو؟
- عماد. خللي بالك من لهجتك، وما يصحش تتريق على أو على ماما.
- آه: حا ناخد الكلام ناحية ثانية خالص عشان نموه ع الموضوع. طب علي الطلاق أنا استنتاجي هو الصح.

صعقت خديجة .. كذبت سمعها فلا يمكن أن تصدق أن عريسها وحبيبها، إبن العائلة المحترمة خريج الجامعة موظف البنك المرموق، يحلف بالطلاق صبيحة عرسهما مهما كانت الأسباب، فحذرته:

- عماد. إنت واعي للي قلته؟ اللي سمعته ده حقيقي؟ إنت حلفت علي بالطلاق؟ أنا حا اعتبر نفسي ما سمعتش .. وانت أرجوك اوعدني إن دي تكون المرة الأولى .. والأخيرة.

حاول كلاهما السيطرة على اتجاه الحديث، تلافيا لانفجار قبل مرور أربعة وعشرين ساعة على العرس.. وتولد لدى خديجة توجس حول المستقبل كَمُنَ في نفسها بالجوار مع ما كانت تتوقعه من حزن قادم في حياتها مع عماد وبرغم عدم عثورها على تفسير لذلك.

مضت الأيام وغطت أواصر الحب ودواعي السعادة على حدث عابر.. وانتهى شهر العسل المختصر في عشرة أيام قبل أن يعود عماد إلى عمله، وزحف العنصر العملي على رومانسية حياة العروسين خطوة .. خطوة، فقد أصبح على خديجة أن تعد الطعام والشراب، وأن تقوم بغسل الملابس وكي بعضها وإرسال البعض إلى المكوجي واستقبالها بعد كيها .. وكثير من أعمال النظافة للمسكن وغسل الأواني وغير ذلك .. وادخار وقت كاف لاستقبال الزوج في صورة طيبة، وراحة جسمانية واستكمال اليوم بأداء لحقوق زوجها.

في خلال الشهور الثلاثة الأولى، وفي أحداث بسيطة سيطر عماد على لسانه قبل استكمال يمين الطلاق، وإن كانت حروف أو كلمة منه قد أفصحت عما انتواه .. وفي حالات أخرى استبقت خديجة الألفاظ، فوضعت كفها على فم عماد مانعة للحروف من مغادرة شفتيه، لكنها كانت تتألم، وتحس وكأن

القول قد أكتمل، بل وكانت تشعر أحياناً أن الفعل قد وقع.. وكانت في كل مرة ترجوه .. تتوسل إليه أن ينتهي عن ذلك، لأن استمراره فيه سيكون سبباً في دمار حياتهما، إن هي دمرت لا قدر الله.

وجاء شهر رمضان، توقف عماد .. بطبيعة الحال .. عن شرب أكواب الشاي وتدخين اللفافات اللعينة خلال النهار، ورغم استهلاك ساعات العمل في البنك لمعظم وقت الصيام .. إلا أن الوقت القليل الذي كان عماد يقضيه في البيت قبل مدفع الإفطار كان كفيلاً بإشعال نار كادت في أكثر من مرة أن تحرق البيت لا تبقى فيه ولا تذر.. كانت عصبية عماد لأتفه سبب، وحتي بلا سبب، كان يصرخ، وكان يلوم .. ويهدد، وعاد إلى إطلاق يمين الطلاق مرات في كل يوم .. حتى أنه في أحد أيام رمضان، وقبل الإفطار بساعة دق جرس الباب، فصاح في زوجته لكي تفتح الباب وتنظر من الطارق. فتحت وعادت اليه تبلغه أنه سائل وستصرفه، فاستنكر عليها ذلك وطلب منها إعطاءه نصف صينية الرقاق التي أعدتها للإفطار، وهمست له منبهة أن النصف الآخر لن يكفيهما وخاصة لعدم وجود أكثر من قطعتين من اللحم وقليل من البطاطس المحمر فقال بصوت سمعه السائل:

- علي الطلاق هاتديله الصينية كلها.

إستشاطت غضبا لاستمراره واستمرائه لتكرار استعمال ذلك النمط الكريه من الحديث وقالت غاضبة بصوت مرتفع:

- حادِّيها له، وان شا الله ناكل زلط..
- أفرغت الصينية في لفافة اتجهت بها نحو الباب، ومدت يدها لتسليمها للسائل، الذي مد يده يتسلمها قائلاً:

- ربنا يطعمك .. ياريت تديني حته لحمة .. أولادي ما داقوهاش من شهرين.

ترامت كلمات السائل إلى مسامع عماد فغضب من ذلك السائل الطماع الذي لم يكتف بما أحدثه من خلاف بين زوجته وبينه بسبب التصدق عليه بكل ما أعدَّا لإفطارهما فصاح:

- إرجعي يا خديجة ما تديللوش حاجة .. علي الطلاق ما هو واخد حاجة .. واقفلي الباب.

لقد بلغ السيل الزبي .. تجاوز عماد كل الخطوط في الهزل والجد وأصبح الطلاق مضغة في فمه يستخدمها كما يتنفس، واستكثرت خديجة على نفسها أن تكون حياتها الزوجية لعبة يتلهي بها زوجها كطفل فرح بلعبته الجديدة .. تضاعف الغضب في نفسها، وتصاعد الإحساس بالكبرياء واستنكار صنيع زوجها فأكملت السير وأعطت صينية الرقاق للسائل ثم أغلقت الباب، وعادت إلى عماد تؤنبه، وتعلنه بنفاذ صبرها، وتبلغه أنها أعطت الطعام للسائل رغم يمينه فلينظر ماذا يرى، وفوجئ عماد بذلك التحدي واعتبر خديجة ملتقطة لحجةٍ توقع بها الطلاق وسألها:

- إنتي عارفه معنى إني أحلف عليكي بالطلاق، وبرضه تعملي إلى حلفت عليكي ما تعمليهوش؟
- عارفة ياعماد .. واللي ف بالك كمله.
- يعني الطلاق مش هامك؟
- بالعيشه اللي انت معيشها لنا وممشيني ع السلك طول الوقت شوف اللي انت عايزه اعمله.
- تبقي طالق – ياخديجة

- ماشي ياعماد، ولما العقل يرجع لك إبقى تعالا لي عند بابا عشان نشوف الحكاية دي .. يانكمل الانفصال عشان ماتلاقيش حد تحلف عليه.

كانت هذه هي الطلقة الأولى، ورغم مراجعة والدها لوالده الذي استنكر ما فعله ابنه وتعهد بعدم تكراره. وتوافق الأسرتين على أن يقوم عماد بإعادة خديجة إلى عصمته، وعودتها إلى بيتها في مثل تلك الأيام "المفترجة"، فمن غير المقبول أن يهل عليهما أول عيد بعد زواجهما، وهما منفصلان .. وعادت خديجة إلى بيتها، لكن شرخًا أصاب نفسيتها، وحاجزًا رقيقًا استقر بينها وبين زوجها، ففقدت تلقائيتها في السلوك وفي التعبير، وأصبحت تتحسس خطواتها وكلماتها وتلاشت بذلك المواقف التي يمكن أن تعطي عماد مبررا لعودته إلى استخدام يمين الطلاق.

بدأ عماد يلمح، ثم أخذ يصرح بقلقه من عدم حدوث الحمل..

واستغرب السكينة والتسليم اللتين تعاملت بهما خديجة مع الأمر، وبدأ يمهد لطرح اقتراح العرض على طبيب لفحص الحالة، وتحديد السبب والعلاج إن لزم – وكانت خديجة تسوف لخوفها من احتمال أن يكون لدى أحدهما عيباً خلقياً يحول دون الإنجاب، لأن نتائج ذلك ستكون حاسمة وكارثية، ومن رأيها أن الوقت الذي مضى لم يكن يشكل عقدة بلا حل .. ومع ذلك – وتحت إلحاح عماد – ثم تصميمه – صحبته إلى طبيبة أمراض النساء التي بدأت بإجراء تحليل أثبت – ولمفاجأتهما المذهلة – أنها حامل.. عقدت المفاجأة لسانيهما وعادا إلى بيتهما يحتفلان بالمناسبة، ويزفان الخبر إلى الأهل والأصدقاء.

حمدت خديجة الله أن أنقذ حياتها الزوجية في الوقت الحرج وجاءت بشرى الحمل بشيراً لحياة طيبة يحرصان عليها معاً حماية لحب قديم،. ورعاية للقادم الذي سيضاعف من حرصهما وإحساسهما بالمسئولية. ومرت شهور لم يتخلص عماد خلالها من عصبيته ولا من استخدامه لأيمان الطلاق، وإن اتسع الفاصل نسبياً ما بين كل مرتين يستخدم فيهما ذلك .. وبدأت خديجة تستخدم مهدئات من صنع عقل الأنثى، ففي جلسة جمعتهما كان حديثهما عن المولود القادم وأمنياتهما له، وتخطيطهما لحياته – وحين تقدمت شهور الحمل، وأظهرت الفحوص، والسونار أن الجنين لذكر، بدأ شراء الملابس الخاصة به، ومضت ساعات في مناقشة واختيار إسم المولود، فحصرا الأسماء الإسلامية، والأسماء المستحدثة، والأسماء الوافدة مثل التركية وغيرها فوسعوا نطاق الإختيار، واستوعب الحديث عن المولود معظم ساعات الفراغ.

وبعد الولادة نشأ عنصر عكسي ومسبب جديد للإستثارة؛ فاهتمام خديجة بحسام؛ المولود الجديد قلل من قدر اهتمامها بالزوج عماد، وبدأ عماد يضجر عند كل سهو عن كي قميص معين، أو تجهيز ربطة عنق، ويربط ذلك الإهمال بانشغال خديجة عنه.

زاد الأمور اشتعالا؛ ظهور إمارات الحمل الجديد على خديجة بعد ولادتها لحسام بشهور قليلة فأصبحت تعاني من الحمل، وتربية المولود وتدبير الألبان الصناعية له .. ثم الإعداد للولادة الجديدة وما إلى ذلك، مما دفع عماد إلى قضاء معظم وقت فراغه مع الأصدقاء بعيداً عن المنزل ومشاكله ..

وكانت وفاة والد خديجة ووالدتها في حادث سيارة مدعاة لحزن عميق وإحساس بفقدان السند، فكانت أمها المتنفس الوحيد الذي تبثه شكواها، فتهون

عليها وتؤكد لها أن عماد "أحسن من غيره، وكل الرجالة فيهم عيوب أكثر من اللي ف عماد" وغير ذلك.. كما كانت تلجأ إليها في رعاية حسام لإتاحة الفرصة للخروج مع عماد في زيارة أو نزهة أو مشاهدة فيلم جديد في دار للعرض لكسر الملل، ودفع السأم.

حين وضعت خديجة مولودها الثاني، بدأ عماد ينام في غرفة منفصلة بدعوى أن الأولاد يزعجونه ولا يتمكن من النوم المريح بعد يوم عمل شاق وانتظار ليوم مجهد، واتسع الفاصل بين عماد وخديجة نهاراً بسبب العمل ثم الانضمام للأصدقاء، وليلاً بسبب النوم المنفصل .. ولم يعد هناك من يستضيف الأطفال ويرعاهم لساعات تسمح بتحقيق التقارب ورتق الهوة .. ازداد التذمر والضجر وعادت أيمان الطلاق، وتم الطلاق الثاني لأتفه الأسباب وحذرت خديجة بوجل وإشفاق من أن حياتهما الزوجية أصبحت معلقة على قشة يمين ثالث – وأخير – بالطلاق وطلبت من عماد أن يراعي الله فيها وفي طفليهما الرضيعين، وألا يضيعهم بانفلات لسانه وعصبيته الزائدة، فهي تعرف طيبة قلبه، وأصله الطيب.

عاد عماد من عمله في يوم من أيام يوليو؛ ملتهبة الحرارة بعد يوم عمل مضن صادف فيه مشاكل مؤرقة من تضاعف لعدد العملاء في أول أيام العمل الأسبوعي، ثم سقوط النظام في الكمبيوتر "وقوع السيستم" وتحويل مبلغ بالخطأ إلى حساب مخالف، إلى آخر ذلك في يوم واحد. وضع المفتاح في باب الشقة كالمعتاد وأداره وما إن دفع الباب لفتحه حتى انبعث دخان كثيف، وزكمت أنفه رائحة احتراق شواء أو غيره من المطبخ .. فاندفع إليه وكلما اقترب منه ازداد الدخان كثافة وسوادا، فنادي بعصبية على خديجة حيث لحقت

بـه فـي المطـبخ، بعـد أن أطفـأ شـعلة البوتاجـاز .. ونقـل الوعـاء المـتفحم إلـى الحوض وفتح عليه صنبور المياه، وفتح جميع شبابيك المسكن وكل المراوح، وشفاط الهواء بالمطبخ.

من حظ خديجة العثر أن نادت على عماد بلهفة، ولهجة آمرة قاطعة:

- إقفل المروحة إلى ف أوضة النوم .. الولاد نايمين وحا ياخدوا برد.

استثارته الكلمات، وتعجب لحرصها الشديد وخوفها على أولادها من البرد فرد بعصبية زائدة:

- خايفة عليهم م البرد ومش خايفة تحرقيهم ياست هانم .. إنتي مش حاتبطلي بقى الإهمال إلى حايودينا في داهية ويخرب بيتنا ده؟

واستدركت في محاولة للإعتذار وتخطي الموقف في دلال؟

- يعني هما العيال كانوا حا يتحرقوا وانا لأ؟ .. انت خايف ع العيال ومش خايف على يا عماد؟

وازداد انفعاله رفضاً لاستخدام الدلال في مثل ذلك الموقف المشتعل ورد بغضب:

- العيال مالهمش ذنب، لكن أما تبقي السبب وتولعي في الشقة والعيال وانتي معاهم؟ .. يبقى انتي ف ستين داهية لكن العيال مالهمش ذنب.

فوجئت خديجة بهذه الإهانة، والاستهانة فلم تكن تتوقع أن يكون هذا هو قدرها عند حبيبها وزوجها وأب أطفالها فردت في محاولة أخيرة للحفاظ على شعرة معاوية:

- في ستين داهية؟ وقدرت تقولها يا عماد؟ طب وليه في ستين داهية وعيالي عايزيني .. إذا كنت انت مستغني عني أنا مش حالقح جتتي عليك، لكن أربي عيالي.
- خلاص .. انا مبقتش قادر أتحمل، ومصاريفكم حاتوصلكم كل أول شهر .. إنت طالق يا خديجة خليك مع عيالك، وحاسيبلكم الشقة بس حافظي عليها.
- يا خبر اسود .. دى التالتة يا عماد. دمرت كل حاجة .. وانت إلى خربت البيت من غير ما يتحرق .. وربنا ينتقم منك.

وكانت نهاية مبكرة لم تتخيل خديجة أن تكون واقعاً، رغم الهواجس القديمة .. فعاشت لأولادها وقدرت ألا تعيد تجربة الزواج فإذا كان هذا هو حال الزوج الحبيب، فما بال الآخرين الذي لا تعرف عنهم شيئاً، وإذا كان عماد قد باع عشرتها فألقي بها وله منها طفلان. فمن غيره يتحمل رعاية طفليها من أجل عيونها؟

مرت شهور العدة والغضب ملء نفسيهما، فلا خديجة مستعدة لتجاوز الإهانة الشديدة التي وجهها إليها عماد بسبب واقعة قد تكون خطيرة ولكنها مبررة من وجهة نظرها .. فلقد أعدت الطعام ورفعته على النار حتى يطيب مع موعد عودة زوجها، ثم اندست في السرير ترضع طفليها ليناما قبل عودة أبيهما لتوفير الجو الهادئ مع قدومه، وغلبها النعاس من فرط إرهاقها منذ الصباح الباكر حين أيقظت زوجها ودخلت إلى المطبخ تعد له مشروباً ساخناً وبعض الساندويتشات ليأكلها أثناء العمل، ثم إخراج ملابسه من الصوان ومناولته إياها ثم شراء الطعام .. ورعاية الأطفال .. أليست إنسانة يمكن أن يمكن الإرهاق النوم من جفونها؟

ولا عماد هدأ غضبه مع تخيل أن تأخره دقائقاً كان كفيلاً باحتراق شقته وفيها زوجته وطفليه لإهمال رآه غير مبرر، أو غير كاف للتبرير .. فلم يحاول التهدئة بل وقطع على نفسه فرصتها فلم يزر بيته حتى لرؤية الأطفال.

لكن الظروف تغير الأحوال، لقد أقام مع والده ووالدته فاضطر إلى تغيير نظام حياته التي استقر عليها في بيته، بعد أن كان قد غيرها بعد الزواج والعيش في مسكن جديد في ظل علاقة جديدة، فبدأ حنينه يزداد نحو بيته وكل عاداته التي اعتادها بين جدرانه، ولأطفاله، ولخديجة التي بدأ يستعيد كل تضحياتها، وجهودها، وتسامحها، فاتصل بها ليبلغها رغبته في رؤية الأطفال .. قالت خديجة:

- بيتك ومطرحك، بس لو سمحت تجيب ماما أو بابا معاك عشان إحنا دلوقتي متحرمين على بعض وما يصحش نكون لوحدينا.

سمعها وأحس بها لأول مرة، وتأثر بشدة من اشتراط وجود طرف ثالث "محرم" حين يجتمع بخديجة في مكان، وأجابها إلى طلبها وأحضر والدته معه فاستقبلتهما خديجة بترحاب وكرم رغم مرارتها من عدم مبادرة والدته بأي محاولة للصلح، وتركها لذلك البيت الذي جاءت الآن تزوره، نهبا للخراب .. وتأثرت الأم وأحست بتقاعسها عن دور لم يكن ليغيب عن فطنتها، فضلاً عن إنسانيتها، وطيبت خاطر خديجة ووعدتها بزيارتها مكرراً سواء بصحبة عماد أو بدونه.

وبالفعل تكررت الزيارات وتكررت زيارات عماد، وبدأ الجليد يذوب رويداً .. رويداً .. وبدأ يبدي الندم على ما وقع، ويعلن عن عدم استطاعته مداومة الحياة، ورغم مبادلة خديجة له في نفس الشعور، لكنها كانت تسأله في لوم:

- هو انت سبت باب موارب ندخل منه؟ دانت قفلتها بالضبة والمفتاح؟
- والعمل ياخديجة؟
- العمل عمل ربنا، واحنا ما فيش قدامنا سكة نمشي فيها .. ولا نخالف شرع ربنا؟
- أنا فكرت كثير، وفيه سكة .. لو وافقت عليها نقدر نرتب لها أكثر.
- لو سكة صح إيه اللي يخليني ما وافقش؟
- هي صح .. ومش صح .. أو بمعنى أصح مش مريحة نفسياً.
- دي فزوره .. لو فيه طريقة شرعية قولها وانا موافقة يا عماد عشان الولاد يتربوا بيناً.
- هي شرعية بس يارب نفسيتي ونفسيتك تتحملها.
- إوعى تفكر في المحلل.
- ما هي دي السكة الوحيدة اللي قدامنا.
- شوف ياعماد .. إنت عارف إني معايا ليسانس حقوق، وإني درست شريعة وكنت متفوقة فيها، وعلشان واحدة من جيراننا – وانا صغيرة – إطَّلَّقت ثلاث مرات واتجوزت واحد تاني، واتطلقت ثاني يوم، وعرفت بعدين أنه كان محلل، فالموضوع ده لفت نظري وركزت في دراسته وفهمه، وعرفت حالات وقريت فتاوي فأنا حا أقولك رأيي واللي انا فاهماه من صحيح الدين، ونظرة المجتمع، ونفسية الزوجين: من ناحية الدين، فالقرأن الكريم بيقول: "الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَآ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّه فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّه فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّه فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ

الله فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ الله وَتِلْكَ حُدُودُ الله يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"، وحتى تنكح زوجًا غيره يعني زواج كامل بما فيه المعاشرة الجنسية، وإن كلمة الزواج لازم يكون فيها نية الإستمرار، ونظرة المجتمع للزوج والزوجة والمحلل نظرة دونية بيوصفهم فيها بالإنحطاط والحيوانية، أما نفسيتنا فشوف انت رأيك لما تجوزني لواحد تاني، وتيجي في الصبحية عشان تقول له يطلقني وانت عارف إيه اللي حصل بينا في الليلة دي .. وكمان افرض انه مارضيش يطلق لأي سبب – أما نفسيتي فتفتكر شعوري إيه وانا نايمة مع راجل ما اعرفوش ومش حا اعرفه بنقوم بمهمة مالهاش دعوة لا بالحب ولا بالمشاعر، ولا بأي حاجة إنسانية، ويخلص مأموريته الصبح ويطلقني عشان انتظر انتهاء العدة وبعدين ارجع لحضن راجل هو اللي اتسبب في الكلام ده كله.

أما لو اتفقنا احنا الثلاثة على إنها تمثيلية وانه يعمل جوزي كده وكده، فيا ترى بنضحك على مين؟

أنا قلت كلامي .. وشوف انت رأيك إيه؟

ورد عماد في حدة وافتقاد للرأي والفكرة:

- مش عارف يا خديجة. أنا دماغي حا ينفجر .. ما عندكيش انتي فكرة تانية؟

فكرت خديجة لبعض الوقت، ثم قالت بتردد:

- أنا عندي نص حل .. هو محترم وشرعي بس عايز صبر وحظ.
- إلحقيني بيه ولو اني مش فاهم.

- أنا حاتجوز راجل عجوز ويكون محترم ويتعهد بأنه يحب العيال ويراعيهم.

وتعجل عماد في قلق لمعرفة معنى هذا الحل، وما دوره هو فيه:

- وبعد ما تتجوزي العجوز ده.. حاتطلبي الطلاق؟
- لأ.. ما هي كده تبقي نفس فكرة المحلل.
- أمال حاتعملي إيه؟
- حا نستني، لو ربنا رايد لنا نرجع لبعض ينتهي أجله، وأنا طبعاً حا اعيش معاه بما يرضي الله لكن بما لا يرضيني لأن حياتي معاه حاتبقي عيشة والسلام.
- أنا مش قادر اجمع أفكاري. ولا انا موافق .. ولا قادر ماوافقش.
- خد وقتك وفكر .. ولو لقيت فكرة ثانية صح قولها، وانا جاهزة أمشي معاك فيها.

مرت شهور ولم يجد المطلقان حلا .. ولم تتح خديجة فرصة للقاء منفرد مع المطلق، فاستعر الأوار، وزاد اللهيب، وتضاعفت الرغبة، لم يحل بينها وبين التحقيق إلا حواجز الدين والأخلاق والمجتمع، لكنها فاقت الإحتمال ..

ذات صباح دق جرس الباب، وفتحت خديجة لتجد عمتها الصغرى التي تكبرها بعشرة أعوام .. والتي لم ترها منذ وفاة والديها لإقامتها في دمنهور مع زوجها وأولادها .. بعد الترحاب وتبادل الأشواق، قالت العمة:

- لو ف إيدك حاجة اعمليها يا خديجة عشان عايزة أقعد معاك نص ساعة أكلمك في موضوع.

استبعدت خديجة أي حديث عن ميراث، لعدم وجود ما يورثه والدها الراحل، وجاهدت فكرها في محاولة لاستنتاج موضوع الحديث قبل أن تدخل إليه لكنها لم توفق، فأجابت عمتها متسائلة:

- موضوع إيه قبل الغدا، وقبل ما تشبعي شوية من ولاد بنتك، وبالليل ننيم العيال ونقعد نحكي على رواقه؟

ردت العمة باقتضاب:

- مافيش بالليل. أنا حاكل لقمة معاك وارجع دمنهور انهاردة، وما تشغليش نفسك وتعملي حاجة. الموجود يسد وزي ما بيقولوا: بصلة المحب خروف.

انشغلت خديجة لحظات وحرصت على الإستماع من عمتها عما حضرت لتقوله:

- أيوه يا عمتي أنا فضيت لك .. تحت أمرك.
- طمنيني الأول إيه آخر أخبارك؟ وناوية تقعدي كده زي البيت الوقف .. وانت لسه قدامك عمر طويل بإذن الله؟

ولخصت خديجة لعمتها كل ما حدث من تاريخ وفاة والديها وحتي اللحظة وما تحدثت بشأنه مع عماد، والتقطت العمة الخيط بسعادة غامرة:

- والله قصَّرتي عليَّ المشوار يابنت أخويا .. أنا جايالك أعرض عليكي موضوع كلمني فيه عبد السلام جوزي، وأنا اترددت عشان كنت خايفة تصدميني برأيك وكان حايبقي معاكي حق برضه .. يعني ما كنتش حازعل.
- وإيه هو العرض دا ياعمتي؟

- عبد السلام له زميل كان رئيسه في الشغل. مراته عاشت معاه ثلاثين سنة في هنا وخير .. بس ربنا ما رزقهمش بخلفة وكان العيب منه واستحملته ودلعته وما خلتوش يحس انه ناقصه حاجه أو انه هو حارمها من حاجة، لغاية ربنا ما اختارها من سنتين، ولحوا عليه أصحابه وزمايله يتجوز مارضيش أبدا يتجوز بعدها، لغاية ما طلع السنة دي ع المعاش ستين سنة،. وقعد بين أربع حيطان لا شغل يشغله ولا عيل ولا بنت تونسه، بدأ يحس بالوحدة .. وبرضه الراجل مايستغناش عن الست لا في أكل ولا شرب ولا فسحة .. ولا .. ولا. يعني انت فاهمة بقى.

ولما عبد السلام كلمه الأسبوع اللي فات لآه بدأ يلين .. فسألني إذا كنتي ترضي تتجوزيه، وأنا في البداية قلت له: دي خديجة أد بنته.

قاللي والله دا حيهنيها ويسعدها أكتر م الشبان – قلت له على كل حال، هي صاحبة الكلمة .. أنا حا أقول لها، وما على الرسول إلا البلاَّغ.

- والله ياعمتي، سبحان الله، أنا فعلا قررت إني – لو اتجوزت – يبقي لازم يكون راجل عجوز.

ثم ضحكت ضحكة مدوية قبل أن تؤكد:

- ويستحسن يكون كهنة كمان

وأحست عمتها براحة عميقة لهذا الرد غير المتوقع، فشهقت شهقة عميقة ثم قالت:

– ع البركة، وكده يبقى مستوفي الشروط، ودا على ضمانتنا: يعنى حَمَار وحلاوة.

قالت خديجة:

- أنا لو اتجوزت حا اسيب الشقة لعماد .. وكمان لازم العريس يعرف ان عندي عيَلين مش حا اسيبهم.

وقاطعتها العمة في سرعة:

- حانقول له على كل ظروفك، وأنا متأكدة انه حا يفرح بيهم عشان هو محروم م العيال .. مسافة يوم ولا يومين حا أقولك على آخر كلامه وان شاء الله يكون لك نصيب تكوني جنبي في دمنهور دا انا مقطوعة من يوم ما اتجوزت وانت حاتبقي بنتي وأختي وحبيبتي.

ثم استدركت قائلة:

- وليه يوم ولا يومين؟ إنتي مش عندك تليفون؟

قالت خديجة: أيوه .. وأحضرته لعمتها، التي أدارت قرص التليفون:

- آلو يا عبد السلام .. خديجة موافقة بس عايزه تطمن انه موافق إن عيالها يكونوا معاها .. حا ترد على بعد ساعة؟ طيب خديجة بتسلم عليك.

بعد نصف ساعة دق جرس التليفون وكان الطالب عبد السلام حيث طلب من زوجته عدم العودة إلى دمنهور وانتظاره عند خديجة حيث سيحضر خلال ساعات ومعه العريس .. وفي نفس المساء حضر العريس؛ رجل وقور حسن المظهر، أنيق الملبس .. كلماته رصينة وقليلة لا تخلو من مزحة مقبولة، وقع نظره عليها فارتاح لها وعرض عليها الزواج بكلمات واضحة:

- أنا شايف ان احنا بينا فارق سن كبير، لكن ان شاء الله ربنا يقدرني أعوضك عن الفرق دا بكل الطرق، وإني أكون أب لأولادك اللي فاضل لي من عمري، وأنا معاشي الحمد لله يكفينا نعيش مستورين ونربي الولاد كويس، وليِّه دخل قد المعاش ما احبش أحطه في الاعتبار يعني اعتبري

عيشتنا من المعاش، والمبلغ الإضافي بنتصرف فيه براحتنا وباللي نتفق عليه، وان شاء الله مش حا نعمل حاجة إلا بالاتفاق. قولتي إيه ياعروسة؟

ردت في خجل:

- أنا اللي سمعته من عمتي واللي شايفاه منك دلوقتي ما يسبليش اختيار.. ع البركة إن شاء الله.
- ع البركة ياست العرايس، وخير البر عاجله .. إيه رأيك لو تقوليلي على أقرب مأذون وانزل أجيبه ونكتب النهاردة في وجود عمتك والأستاذ عبد السلام عشان يباركوا لنا الجوازة، ونحتفل بسهرة بريئة في أي مكان تختاريهولنا عشان احنا بقي مش من هنا.

وإندهشت للسرعة الفائقة التي طلب بها إنهاء الأمر بها:

- بسرعة كدا دا احنا نعرف بعض من ربع ساعة؟
- لأ انا أعرف أخويا عبد السلام من خمسة وعشرين سنة وهو والست عمتك يعرفوك من ساعة ما اتولدتي، وهما ضامنينا احنا الاثنين .. يبقي ازَّاي ربع ساعة.

ضحك الجميع وحضر المأذون وعقد القران، وقضوا وقتاً طيباً خارج المنزل، وفي الطريق إلى المنزل، استأذن عبد السلام وزوجته في الرحيل، وتساءلت خديجة عن سبب العجلة، ولم لا يقضيان ليلتهما معها .. قال عبد السلام:

- إحنا سايبين الولاد في دمنهور لوحدهم. نروح نطمن عليهم وانت أدي إحنا إطَّمِّنا عليكي وسايبينك في إيد أمينة .. وبعدين زي ما بيقولوا بقي: العروسة للعريس..

وقاطعه محي العريس:

- إيه يامولانا اللي انت بتقوله ده؟ إنت حاتسيبني فين؟
- مع عروستك ياسيد والليلة ليلتك.
- ياراجل هو احنا معقول ندخل على عفش راجل تاني وفي شقته .. الشقة من اللحظة دي من حقه، وخديجة لو عايزة حاجة م العفش نيجي سوا الأسبوع الجاي ننقلها ونسلم الشقة لصاحبها..

أما دلوقتي فاحنا حاناخد تاكسي ونطلع علي دمنهور، العروسة تشوف شقتها وتبات فيها..

وفي عجالة جمعت خديجة احتياجات أسبوع واحد وما تخشى تركه في الشقة وجلست في التاكسي مع زوجها الذي لم تتعرف على اسمه إلا من خلال كتابة العقد، وودعت القاهرة في طريقها إلى حياة جديدة. قلل من إحساسها بوحشتها أن عمتها وزوجها كانا مازالا في نفس العربة.

وصلت العربة إلى دمنهور فأوصلت العمة وزوجها إلى منزلهما أولاً، ثم اتجهت إلى بيت محي، وصعدا إلى المسكن ففتح لها غرفة الضيوف لتكون من اليوم غرفة "الولاد" .. اطمأنت على نومهما، ثم ارتدت قميصا يناسب العرس، وفوقه روب، وخرجت فوجدت عريسها وقد استبدل ملابسه ببيجاما فوقها روب أيضا وعرفها على الشقة المكونة من أربعة غرف مؤثثة بأثاث فاخر، وفتح الثلاجة وأشار إلى محتوياتها قائلاً:

- التلاجة فيها حاجات تكفي العشا والفطار ودي آخر مسئوليتي، إنتي من بكرة صاحبة البيت تشتري اللي انتي عايزاه، وانا ما عنديش مصروف محدد، أنا با أقبض المعاش وأحطه في درج الشوفنيره واللي عايز حاجة

بياخدها، يعني أنا اللي حاخد منك مصروف جيبي زي ما انت عايزة؛ باليوم .. بالشهر .. أي حاجة.

أنا عشان ما أذيش مشاعرك جمعت حاجة المرحومة كلها في دولاب لوحدها في أوضة الولاد وإنتي من دلوقت الملكة في البيت ده.

أحست راحة شديدة. صدقته وأمنت له، وأحست به زوجاً وأباً وأخاً واستيقنت أنه سيكون الأب الحنون لأولادها، شعرت بذلك منذ الليلة الأولى فقد أحست بقيامه عدة مرات، ولمحته وهو يحكم الغطاء عليهم، ويخفض الإضاءة لهم ويحكم إغلاق النوافذ ويسحب الستائر أمامها.

ناما على سرير واحد، وحين شعر بتركها فاصلاً بينها وبينه، تركها تقضى ليلتها، كفاه منها هذه الدرجة من التقارب، وترك للوقت مهمة رفع الكلفة والخجل وأن تأتي الأمور طبيعية.

وفي الأيام التالية تسوقا معاً، وزارا عمتها وزوجها. وقف إلى جوارها في المطبخ وهي تعد الطعام، يساعدها ويناولها، ثم ينقل الأطباق إلى السفرة حين يحضران لوجبات الطعام. كان يهرع إلى حجرة الأولاد حين يسمع بكاء أحدهما أثناء انشغالها في عمل، فيلفه جيداً في غطاء محكم ويحمله، ويهدهده حتى يكف عن البكاء أو يسلمه لخديجة لإرضاعه أو استبدال غياره.

وحين يأتي الليل كانا يهجعان إلى نفس الفراش بتقارب أكثر، حتى كانت الليلة الرابعة فاقتربت أكثر وأكثر، لم تكن على علم بإمكانية معاشرة زوجية، وكانت تتنازل عن هذا الحق إذا لم يكن ممكناً فيكفيها منه كل ذلك الحنان وكل ذلك العطف والكرم ..

أحس بدفئها وتلامس جسديهما، فاستدار، واحتضنها فبادلته الأحضان واستحضرت كل شوقها بعد مرور الشهور ورأت في سلوكها تعبيراً طبيعياً عن تقديرها لذلك الرجل المعطاء، وتسارعت التعبيرات والمشاعر، فكانت القبلات؛ بدأت بالخدود ثم زحفت إلى الشفاه، وتطورت الأمور في سرعة أذهلت كل منهما .. وكان لقاء حميميا أضاف إلى سعادتها، سعادة ورضا وطمأنينة لجانب كان إسقاطه للأبد موجعاً، ولكنها رأت فيه رجلاً محنكاً ومازالت لديه طاقات الشباب.

بعد أسبوع، اصطحبها محي كما وعدها إلى القاهرة وطلبت من عماد الحضور إلى الشقة عاجلاً .. فحضر غير متوقع لشئ مما كان .. فوجئ بوجود محي معها حيث قدمته له بسرعة قائلة:

- محيي .. جوزي .. وجايين ناخد العفش واديلك القايمة.

ورغم علامات الأسى على وجهه فقد ارتاح عماد نسبياً أن رأي محي عجوزاً يؤكد التزام خديجة بما سبق أن عرضته، فاعتبر أن ذلك خطوة على الطريق وإن لم يكن أحد يدري متى تحل الخطوة التالية ..

تم شحن الأثاث إلى دمنهور، واصطحبها محي إلى مطعم فاخر فتناولا ما اشتهت نفسها ثم نفسه، وعادا لتسلم الأثاث الذي أضيف إلى الموجود بمسكنهما، وفوجئت بمحي وقد أحضر ورقاً وقلماً فسجل مفردات الأثاث بدقة، على هيئة قائمة، ووقع عليها وسلمها لها، ثم أحضر ظرفاً وفتحه وأخرج منه أوراقاً مالية سلمها لها وطلب منها عدها فوجدتها خمسة ألاف جنيه وجنيه واحد.

قال لها:

- هذه هدية زواجنا فإن المسجل بالعقد حقوق لكنك تستحقين هدية تليق بمقامك.

قالت له:

- مش عارفة أقولك إيه ولا إيه؟! انا حاسه بسعادة كبيرة معاك.. وماكانلهاش لازمة الفلوس دي، وبعدين دول فيهم جنيه زيادة بتاع إيه ده؟
- دا المقدم بتاع مهرك، نسيت في الظيطة أديهولك ..
- ياخبر ابيض .. إنت رائع .. ربنا يخليك ليه ويطول عمرك يامحي.

لقد بدأت تدعو له بطول العمر، وترجو من الله أن تطول حياتها معه.

كانت خديجة تكتشف في كل يوم مكرمة في زوجها، رأت فيه الكرم مع الجميع، ومعها ومع أبنائها بشكل أوضح، كان عارفاً بدينه مؤدياً لفروض الصلاة جميعها في المسجد، ومع عودته في كل مرة كان يحمل كيساً فيه من أصناف الفاكهة، أو أنواع الحلوى والشيكولاته، أو المسليات والمقرمشات، أما الطفلان فكانا في مقدمة اهتمامه، كان يتابع علب الحليب ليستعوضها قبل أن تنتهي، وكان يشتري علب الحفاضات لتكفي شهرا أو شهوراً .. حل عيد ميلاد خديجة، ففوجئت به يطلب منها أن تستأذن عمتها في استضافة الطفلين، وحين سألته عن السبب أبلغها أنهما سيخرجان في المساء لجولة، وقبلت العمة فأودعا الطفلين لديها واتجها إلى مطعم تناولا فيه العشاء وبعده وضعت على مائدتهما التورتة وعليها شموع رمزية، وخفضت أضواء المطعم ووضعت أسطوانة عليها أغاني عيد الميلاد، وجاء المترودتيل فانحنى أمامها قائلاً:

- كل سنة وانت طيبة ياهانم .. أي أوامر تانية يا بيه؟

ذهلت خديجة فقد كانت تنسى أن ذلك اليوم هو عيد ميلادها وسألت زوجها:

- إنت عرفت عيد ميلادي منين يا محي؟
- انت ناسيه إني معايا صورة من عقد جوازنا، وإن تاريخ الميلاد مكتوب فيه؟
- انت رائع يا محي .. ياريتني أقدر أرد لك جزء من اللي انت بتعملهولي..
- ما تتكلميش، واقطعي التورتة علشان ناكل حتتين ويلفوا لنا الباقي.. ما عندناش وقت.
- وعلى إيه الاستعجال؟ دي القعدة حلوة قوي
- أيوه بس علشان نلحق الفيلم الجميل المعروض في السينما أنا حاجز تذكرتين.
- معقول؟ كل دا يا محي؟
- كل الدنيا ما تساويش لحظة من سعادتنا مع بعض ياخديجة.

مضت الحياة على هذه الوتيرة، نغم هادئ منساب، لا يشوبه أي نشاز، سعادة في النهار، ورضا في الليل، وتوازن في حياة بنياها على الإحترام والتقدير، فسادها الحب وصارا عاشقين في ريعان الشباب ينهلان من الحياة أجمل ما فيها لا يعكر صفوهما كدر.

ومع مرور الأيام كبر الطفلان وأدخلا المدرسة، ومرت سنون وصل فيها حسام إلى الشهادة الإبتدائية يسبق شقيقه حازم بعام دراسي واحد.

جلست خديجة تتأملهما وهما يساعدانها في إعداد مائدة الطعام غير مصدقة بمرور كل هذه الأعوام دون أن تعود – ولو لمرة واحدة – بعقارب الزمن لتتذكر أيامها مع عماد، وسألت ابنيها:

- مين طلب منكم تساعدوني؟
- بابا محي هو اللي قالنا ساعدوا ماما علشان أنا مشغول في حاجة.

أيقنت أنه يفعل شيئا أكثر أهمية من معاونتها فتسللت إلى حجرة نومهما فرأته يضع قطعة ذهبية في علبة من القطيفة وفاجأته بسؤاله:

- بتعمل إيه يا حبيبي؟
- آه يا خديجة بوظتي المفاجأة، أنا باحضرلك هدية عيد جوازنا .. تصدقي بقالنا احداشر سنة متجوزين؟

ذرفت من عينها دمعة، ولخصت كل مشاعرها في عبارة واحدة:

- عقبال ميت سنة ياحبيبي .. وربنا يجعل يومي قبل يومك.

الوزيـــر المحـــلل

صدر القرار الجمهوري بتشكيل الوزارة الجديدة، ومن بين أعضائها جاء إسم "علي بخيت" وزيراً للتموين والتجارة الداخلية.

حاولت أجهزة الرئاسة الإتصال بالوزير لإخطاره بموعد أداء اليمين القانونية أمام الرئيس في اليوم التالي، فلم يعثروا على أثر له، في منزله ولا في الشركة التي يعمل بها رئيساً للقطاعات، ولا في النادي الذي اعتاد قضاء جزء من وقت فراغه فيه.

تحركت المباحث تستقصي وتستجوب زملاءه في العمل وجيرانه في السكن وبواب العمارة التي يسكن فيها، والذي أفاد بأنه رآه لآخر مرة منذ أربعة أيام عند عودته من العمل، وصعوده إلى مسكنه بالطابق السادس حيث يسكن وحده بعد أن توفيت زوجته منذ عام.

وتطابقت أقوال البواب مع إفادة الشركة بأنه لم يحضر للعمل قبلها بثلاثة أيام دون إخطار، على غير عادته.

حصلت الشرطة على إذن من النيابة بكسر باب الشقة .. وعندما اقتربت القوة من الباب أيقنت صحة استنتاجها، فقد زكمت أنوفهم رائحة كريهة تنبعث من داخل الشقة تضاعفت بعد فتح بابها، وعثرت الشرطة على جثته مسجاة على سريره، بما اتضح فيما بعد أنه توفي منذ ثلاثة أيام طبقاً لتقرير الطب الشرعي.

عرض المأزق على الرئاسة .. الوزير الذي ورد اسمه بالقرار الجمهوري توفي قبل صدور القرار بأيام، وستغطي الجرائد في صفحات الحوادث ملابسات الوفاة بما فيها تاريخ وقوعها..

وسيتساءل الرأي العام بطبيعة الحال عن أسلوب اختيار الوزراء دون استشارتهم، ولا حتى التأكد من أنهم أحياء!

بحسم؛ أصدرت الرئاسة أوامرها للجهات الأمنية للبحث عن وزير بديل يحمل نفس الإسم بصرف النظر عن باقي بياناته الشخصية وتجهيزه لحلف اليمين في اليوم التالي، وأن على الأمن حراسته وتأمينه حتي نقله إلى مقر الرئاسة قبل الموعد المحدد، وتم صرف مبلغ من المصروفات السرية بالرئاسة لصرفه على تحسين مظهر الوزير المرشح.

بسرعة، وهمة عالية تحركت الجهات واستعانت ببيانات السجل المدني ودليل التليفون، وكل الوسائل المتاحة حتي تم العثور على خمسة مواطنين يحملون نفس الإسم، وجمعوا بياناتهم، ثم استبعدوا اثنين منهم حيث يعمل الأول سباكا، بينما يعمل الثاني ميكانيكي سيارات ولا يجيدان القراءة والكتابة، انتقلوا إلى مساكن الثلاثة الآخرين، ثم اكتشفوا أن أحدهم غادر البلاد حيث يعمل في ليبيا، بينما كان الثاني مصاباً بعاهة إثر حادث سيارة شوهت وجهه، ورحلت فكه الأسفل من مكانه فأثرت بشدة علي نطقه للحروف والكلمات.

إذاً فاز الخامس بمنصب الوزير بالتزكية .. استدعوا الحلاق حيث قص شعره وهذب شاربه، وتأكدوا من مطابقة الملابس والحذاء التي اشتروها لمقاساته، وربطوا له رباط العنق ليقتصر دوره في الصباح على إدخال حلقها في رأسه، والهبوط بها من خلال رقبته وتثبيتها على ياقة القميص .. وكرر أخصائي المراسم على مسامعه تفصيلات الإجراءات التي سيكون عليه أداؤها في الصباح؛ من الإصطفاف مع الوزراء المرشحين، ثم التقدم .. عندما يحل عليه الدور بناءً على ربتة هينة على ظهره يقوم بها أحد الأمناء، والتوجه نحو

الرئيس، ثم الوقوف على مسافة محددة منه على حافة سجادة صغيرة ترمز إلى خط نهاية السير أو حد الوقوف، ويقرأ من القصاصة المسلمة إليه نص اليمين الدستورية .. وبالطبع أجروا له اختبارا في القراءة رغم تأكدهم من حصوله على شهادة إتمام الدراسة الإعدادية .. وأكدوا عليه أن أي خطأ سيمثل فضيحة مذاعة على الهواء حيث تنقل شبكات التليفزيون المحلية والعالمية وقائع أداء اليمين.

في الصباح – وقبل الموعد بساعتين – حضرت سيارة حكومية ومعها حرس خاص فنقلته إلى مقر الرئاسة .. تم تذكيره بكل ما لقن به .. قام الياوران والأمناء بضبط الأمور ولم يسمح للصحفيين ورجال الإعلام والمصورين بالدخول قبل الاطمئنان إلى الصورة النهائية .. تقدم رئيس الوزراء يليه نوابه ثم الوزراء بأقدميتهم، أو ترتيب وزاراتهم لأداء اليمين .. ثم حل عليه الدور، فدفع برفق ليتقدم. ثم وقف في المكان المحدد وفي يده القصاصة التي قرأ منها نص اليمين الدستورية ثم سلم على الرئيس، واستدار ليعود من حيث جاء فاتخذ موقعه مع الوزراء؛ فقد أصبح وزيراً.

اجتمع الرئيس بالمجلس الجديد وأعطى توجيهاته وأصدر تعليماته وتكليفاته قبل أن ينفض الإجتماع. انصرف الوزراء، وحين هم بالإنصراف، إختلى به مسئول في الرئاسة وهمس في أذنه بأن مسكنه قد أغلق وتم نقل أسرته إلى مسكن حكومي مؤثث بحي جاردن سيتي، وأنهم اصطحبوا المتعلقات التي يتعذر عليهم الاستغناء عنها، وأن ابنيه ألحقا بمدرسة متميزة بالقرب من المسكن الجديد .. كما تنبه عليه مشدداً ألا يستدرج في أي لقاء

صحفي أو إعلامي إلى التطرق لأي تفاصيل عن حياته الشخصية أو أعماله السابقة.

فى سيارة سوداء من طراز "مرسيدس" جلس على بخيت خلف يمين العربة كما قيل له، وفى المقعد الأمامى المجاور للسائق جلس حارسه الخاص، ضابط من قوة الحراسات الخاصة، وفى المسافة التى تفصل بين مقر الرئاسة بمصر الجديدة وجاردن سيتى حيث مسكنه الجديد رأى القاهرة بعيون جديدة، وشاهد شوارعها بمنظور مختلف، وتعاطف مع العباد الواقفين على محطات الأتوبيس والسرفيس انتظارا لحضورها.

توقف السائق أمام عمارة فخيمة فى شارع هادئ، تكاد أشعة الشمس تعجز عن اختراق فروع وأوراق الشجر على جانبيه، وهرول السائق إلى حيث الباب الخلفى اليمين للسيارة ففتحه لينزل منه الوزير، وقبله بلحظة فتح الباب الأمامى ونزل منه ضابط الحراسة حيث رافق الوزير إلى المدخل عبورا بكشك الحراسة المجاور للباب الذى خرج منه شرطى أدى التحية للوزير، ونهض حارس العمارة لكى يسبق الوزير إلى باب المصعد؛ يفتحه ويدخل بعد أن دخل الوزير، ويضغط علي زر الطابق الثالث وعنده يفتح الباب ثم يرافق الوزير إلى باب شقته الجديدة فيضغط زر الجرس ثم يستأذن منه بعد أن سأله: "أي أوامر يا سعادة البيه"؟!

فتح الباب ودخل الوزير، وأخذ يجول ببصره في أنحاء المسكن، ويمعن النظر في اللوحات الزيتية المعلقة على الجدران، والفازات المنتشرة في كل مكان والتحف والأنتيكات .. ووقع بصره على بعض الجرائد الموضوعة على الكونسول المجاور للباب فالتقطها واتجه إلى الشرفة ففتح بابها وانتحى جانباً

بـه كرسـي هـزاز فجلـس عليـه، وفـتح الجريـدة الأولـى وقـرأ اسـمه فـي الصـفحة الأولى، ثم انتقل إلى صفحة السياسية الداخلية فوجد صور الوزراء وأسفل كل منها نبذة عن حياة الوزير – حتى وزيري الدفاع والداخلية – لكن صورته ذيلت فقط باسمه واسم وزارته دون بيانات إضافية .. فتح الجريدة الثانية، ثم الثالثة فكانت نفس التغطية .. ألقى بالجرائد، وأحس بالتدني رغم كل الإرتقاء الذي هبط عليه من السماء، وانضم إلى أسرته، يتجاذبون الحديث .. يسألونه عما حدث؛ كيف حدث؟ فيجيب:

- **ما اعرفش.**
- لماذا حدث؟
- ما اعرفش ..
- هل سألت أحداً كيف تم اختيارك؟
- لم أعرف من أسال؟ وإذا سألت، هل أجد إجابة؟ وإذا وجدتها هل تكون صادمة أو جارحة؟

"على كل حال ستتكشف الأمور مع الأيام" قال الوزير، واستطرد: "المهم أحذركم جميعا من الإفراط في الحديث، فكثرة الحديث توقع في الخطأ، ولقد تم تحذيري من الكلام عن نفسي أو عن سابق أعمالي، وأنا بالتالي أؤكد عليكم الإلتزام بذلك."

فـي البدايـة كانـت الأمـور صـعبة، وتسـبب الحـذر الشـديد فـي بعـض الإرتبـاك – ولكـن الـوزير رغـم تواضـع تعليمـه، ورغـم مسـتواه الإجتمـاعي كبـائع بسيط في أحد المحال التجارية الكبرى – كانت فطرته منقذة له في كثير من المواقف الحرجة، فمثلاً؛ استدعى المتحدث الصحفي باسم الوزارة ونبه عليه

بالرد على كل تساؤلات الإعلام، وعدم السماح بأي ترتيبات للقاءات صحفية أو تليفزيونية معه..

وفُسَّر ذلك على أن الرجل يتفرغ للعمل بغير رغبة في الظهور أو الترويج لعمله .. وجاءت استفادته من خبرته في العمل بمحل تجاري لكي تنعكس على أدائه في التعامل مع السوق، وتوجيهاته لكبار الموظفين والمفتشين الذين أحسوا جميعاً بأنه يعرف الأسعار المجزية، ونسب الربح المناسبة وما إلى ذلك، وفي مجال العمل نبه على وكلاء الوزارة وكبار المسئولين بألا ينتظروا منه حل مشاكلهم بعرضها عليه خالية من تحليلها واقتراحهم لبدائل الحلول، بحيث يقتصر دوره على الموافقة على أحد هذه البدائل بناء على المبررات المعروضة بشأنها.

سارت الأمور سلسة وسهلة، وبدا النجاح واضحاً، ومتزايداً، حتى أن الجماهير كانت تعلن رضاءها عن أداء وزارته، رغم اختلافهم بحدة حول باقي الوزارات.

مضت سنة كاملة رغم أن الرئيس كان قد وافق على شغله الوزارة كحل لمأزق .. على أن يشمله أي تغيير وزاري بعد عدة شهور .. وأجرى تعديل شمل عدة وزارات، لكن وزارته كانت ضمن الوزارات التي لم يطرح احتمال بشأن استبدال وزيرها.

كان كل يوم يمر على الوزير في الوزارة يؤكد ثقته في نفسه ويقلل من قدر عدم التصديق الذي ساد نفسه وعقله في البداية ..

رويدًا .. رويدًا اعتاد على الأعمال والتصرفات الموضوعية والشكلية .. لقد كاد أن يصبح وزيراً متمرساً تدرج في المناصب العليا إلى أن وصل إلى

قمتها، وبدأت أسرته تعتاد حياة علية القوم، يسكنون مسكناً أنيقاً في واحد من أرقى الأحياء السكنية بالعاصمة .. زوجته بدأت – على استحياء في البداية – تحضر بعض اللقاءات وحفلات المناسبات بعد أن استبدلت طريقتها في الملبس، والتصرف، واستوعبت متطلبات ذلك بالتدريج.

أما إبناه فقد أصبحا تلميذين بإحدى المدارس المتميزة، وبدآ يعتادان التعامل مع الحراسة، ومع السائق ومع الزملاء بالمدرسة وجيران المسكن، وتم تلقينهما بكيفية التصرف والتعامل وعدم التعالي، فمنصب أبيهما لن يدوم، طال العهد أم قصر.

ذات صباح مشئوم دق جرس التليفون – أحد المقتنيات القليلة التي انتقلت مع الوزير إلى مسكنه الجديد – رفع الوزير السماعة فإذا بفتحي إبن شقيقه عبد المولي الذي توفي منذ أسبوعين وواساه حينها ببرقية اعتذر فيها عن عدم سماح ظروفه بالمشاركة في الجنازة، فبادره بتحية باهتة:

- أهلا يا فتحي

ورد فتحي التحية بمثلها، ثم انتقل مباشرة إلى موضوع المكالمة، وهو ما سبق أن ورثه الأب والعم الوزير عن جده ويقتصر على قطعة صغيرة من الأرض تتمثل في ستة قراريط تعهدها والده المزارع واستمر يرسل بعضا مما جادت به الأرض إلى شقيقه حتى أصبح وزيرا فتوقف بعدها، قناعة بأن الوزير لم يعد بحاجة إلى عدة كيلوجرامات من الأرز أو الدقيق أو بعض الخضروات، وما لبث أن توفى الشقيق وانتقلت مسئولية رعاية الأرض إلى فتحي الذي رأى أن الظرف مناسب لمفتاحة عمه الوزير فيما اعتقده يسيرًا عليه:

- أهلا بيك ياعمي .. الحقيقة أنا كنت ناوي أكلمك في موضوع الأرض لو كنت حضرت العزا بتاع أبويا، بس مشاغلك بقى منعتك، الله يساعدك ويكون في عونك، فقلت أكلمك في التلفون عشان يعني تتنازل لنا عن نصيبك في الأرض اللي هما يعني ثلاث قراريط لا يودوا ولا يجيبوا بالنسبة لك، ربنا يزيدك، إنما بالنسبة لنا حايبقوا نص رسمالنا .. وربنا يخليك لينا.

رد الوزير على ابن شقيقه بغضب ونبرة استنكار لا تخلو من تعال وكبرياء:

- إنتم طمعانين فيَّ ياولد؟! شرع ربنا عايزين تخالفوه وترضوا طمعكم وجشعكم؟ ما فيش حاجة اتغيرت، وان ماكنش يوصلني حقي في مواعيده، حايبقى لي تصرف تاني.

انزعج الشاب الذي لم يكن يتوقع من عمه هذه اللهجة المتعالية، بعد أن أكرمه الله فأصبح وزيرا "بدون مناسبة" وبعد أن ظن أهله أن العائلة بكاملها سترتفع معه إلى مستوى اجتماعي أفضل، وتساءل في انكسار:

- يعني شوية الرز والغلة دول اللي ح يغنوك ياعمي؟ داحنا كوم لحم عايشين ع الكام قراط دول، واحنا أهلك، وربنا يغنيك عن اللي في إيدينا.

ضاق صدر الوزير وعنَّف ابن شقيقه:

- هو أنا اللي طمعان في اللي ف إيديكم يا ولد، ولا انتوا اللي طمعانين فيا وفاكرين ان الوزير دا بياخد باليمين والشمال؟ جاتكم الأرف في طمعكم وخبثكم الفلاحي اللي حايسحب النعمة من بين إيدينا .. إقفل السكة .. وما تطلبش النمرة دي تاني.

ووضع الوزير السماعة .. وانفصل الخط.

استشاط فتحي غضباً .. وعندما هدأ قليلا قرر السفر إلى القاهرة، لعل اللقاء الشخصي مع عمه، والمناقشة الهادئة المتأنية تصلح الأمور وخاصة أنه سيكون في ضيافة عمه في بيته وبالتأكيد فسيراعي قواعد الضيافة.

سافر فتحي إلى القاهرة وفور وصوله اتجه إل مسكن عمه..

وجد المسكن مغلقاً وعند سؤاله للجيران أفادوه أنه انتقل إلى مسكن آخر لا يعرفون مكانه منذ أصبح وزيراً وأشاروا عليه بزيارته في الوزارة.

استحسن الفكرة وسأل عن مكان الوزارة ثم اتجه إليها رأساً، وفي الوزارة سأله موظف الاستعلامات عن مقصده فأجاب:

- مكتب الوزير.
- **سئل:**
- ماذا تريد من مكتب الوزير؟

أجاب:

- الوزير

واستنكر عليه الموظف طلبه فسأله من جديد:

- وعايز الوزير ف إيه؟

أجاب فتحي:

- زيارة شخصية، دا عمي..

تفحص الموظف جلبابه البسيط، وكوفيته الملتفة حول عنقه، والطاقية الصوفية على رأسه فسأله بدرجة من التقزز:

- معاك بطاقة؟

أجاب باعتزاز:

- طبعاً اتفضل..

وقدم له البطاقة فتفحصها الموظف، وأعاد قراءة الإسم:

فتحي عبد المولي بخيت

ولاحظ الموظف تطابق إسم العائلة مع إسم الوزير، فرفع سماعة التليفون وطلب مكتب الوزير حيث أبلغ:

عندي فتحي عبد المولي بخيت .. بيقول إنه أبن أخو سيادة الوزير .. وعايز يقابل سيادته.

قاطعه مدير مكتب الوزير:

- خليك معايا ياسمير

وبعد أقل من دقيقة أجابه بجملة صادمة:

- سيادة الوزير ما يعرفش حد بالإسم ده ومالوش قرايب بييجوا يزوروه في الوزارة .. وأي حد ييجي لزيارته في الوزارة زيارة شخصية، لا يصرح له بالدخول.

كان الصوت مرتفعاً ومنفعلاً، تسرب من السماعة إلى أذني فتحي وقرأ انفعالات موظف الاستعلامات على وجهه .. فصاح بأعلى صوته:

- ما هي قلة الأصل تعمل اكثر من كده، دا عمي لزم يا ناس، أنا لا بتلزق فيه ولا يشرفني إنه يكون عمي .. بس البلد هي اللي بقت بايظه .. يجيبوا وزير بيفك الخط وبيشتغل بياع في محل .. يعني الروس متساوية والحمد لله.

كان أحد الصحفيين جالسا بالإستعلامات يتابع القصة بالنهم الصحفي في البحث عن فضيحة، فاقترب من فتحي وهدأ من روعه ومستفزاً له في الإدلاء بالمزيد:

- إهدا يا فتحي. الوزير بيبقى عليه مسئوليات بتشغله عن أهله وأصدقاؤه، وساعات عن بيته وأولاده، وبعدين دا عمك زي ما سمعت. تقدر تزوره في بيته..
- مش مسألة مشاغل ولا دياولو، دا هو عايز يتبرأ مننا عشان ما بقناش من توبه، وبعدين هو قاعد في بيته؟ ما انا رحت له البيت في الأول وسألت قالولي: عزل من ساعة ما بقى وزير ولا حدش عارف له سكة.

لمعت عينا الصحفي ورأي نفسه على أبواب خبطة صحفية من العيار الثقيل .. فسأل فتحي:

- يعني بافتراض إنك زعلت من عمك الوزير، تقوم يا راجل تطلع فيه القطط الفاطسة، وتقول بيفك الخط، وبياع في محل والكلام ده؟؟

رد فتحي في غضب، مؤكدا ما قاله عنه:

- آني لا بكدب، ولا با تنيل .. آني قلت الحقيقة، واني مش عارف البلد دي ماشية ازاي؟ إنما آهي أرزاق وحظوظ ..

وأخذ الصحفي يستدرج فتحي في معلومات تفصيلية وأدلة، وبراهين عما يقول ومنها معلومات عن زوجته وأولاده .. وعن قريته وأهله واسم المحل التجاري الذي كان يعمل فيه .. وكل ما يعرفه فتحي عن عمه وبالذات تفاصيل النزاع على إيراد القراريط الستة الموروثة ..

وحقق الصحفي كل المعلومات؛ زار قريته والتقى بكثير من أهلها من أقارب ومعارف الوزير، زار المحل التجاري الذي كان يعمل فيه، وسأل أصحاب المحل والعمال وغيرهم، وانتقل إلى مسكنه القديم حيث حاور جيرانه .. وأعد تحقيقاً صاعقاً قدمه لرئيس التحرير الذي أقر نشره على صفحة كاملة مع الصور للأشخاص والأماكن.

على مدار أسبوع كامل .. اهتمت الصحف اليومية والأسبوعية بالموضوع فأفردت له صفحات تعالجه من زوايا مختلفة .. كما شغل الموضوع فقرات مطولة .. في برامج هامة في الفضائيات واستطاعت إحدى الجرائد – بالتقصي والتحليل – أن تتوصل إلى حقيقة ما حدث حتى تم تعيين الوزير.

أيام بعدها أجرى الرئيس تعديلاً وزارياً شمل وزير التموين وربما جاء التعديل أساساً لتغييره، وجاء تغيير بعض الوزراء الآخرين كتغطية على الفضيحة أو إخراج جيد وربما تخريج مقبول، فتوسيع الصورة يقلل من التركيز على أحد مكوناتها.

قال أحد الوزراء الذين شملهم التغيير، واعتبر أن خروجه من الوزارة جاء بسبب علي بخيت، وأنه على حد تعبيره: "اتاخذ في الرجلين":

حكاية علي بخيت بتفكرني بحكاية الست اللي تتطلق تلات مرات ولا يجوز رجوعها لزوجها إلا بمحلل .. وزارة التموين جابولها وزير محلل، لكن والله المحلل عجب الزوجة أكثر من زوجها الأولاني .. مش حرام يطلقوها منه؟!

****

حبيـــب الفقـــراء

ثار جعفر بك حين تلقى ذلك الوعيد، فقد كان يستنكر على نفسه أن يتلقي وعيداً، ولقد تلقاه فعلاً، وعلنا .. وأمام مستخدميه والعاملين في عزبته، وممن؟ من حميدة؛ مقاول الأنفار البسيط الذي يجمع له أنفار نقاوة الدودة من حقول القطن عندما تظهر اللطع على أوراقه، أو يجمعون القطن عندما تتفتح لوزاته وتزهر.

رفع جعفر بك يده الغليظة التي يبرق في معظم أصابعها الذهب وهوى بها على وجه حميدة في صفعة مدوية، تلتها صفعات متكررة بنفس القوة ودرجة العصبية، ولم يسلم جسد حميدة من بضع ركلات متواليات حيثما تصادف أن يكون موضعها من ذلك الجسد، ورافقت ذلك مجموعة من الشتائم والإهانات والتحقير:

- أنا ترفع صوتك عليَّ يا كلب؟! دا أنا أتاويك في أي مصرف ما حدش يعرف لك طريق جُرَّه، ولا افرغ فيك خمس .. ست طلقات، واخلص من قلة أدبك.

وتساءل حميدة في غضب لا يخلو من انكسار:

- ليه دا كله يا بيه؟ أنا كنت قتلت لك قتيل؟ ولا كنت قتلت قتيل؟

رد جعفر بك حاسما منهيا للنقاش:

- إخرس يا حيوان ما اسمعش صوتك .. إنت حشرة أفعصك تحت رجلي..

واستمر حميدة مستغربا رد الفعل المهين:

- كل ده عشان قلت لك ان عدد الأنفار الموجودين ما يكفيش يخلص نقاوة الدودة في تلات أيام، يعني أوافقك ع الغلط ولا ..

وقاطعه جعفر بك في حدة:

- حاتلبخ تاني يا بني آدم؟ أنا اللي باقول غلط؟ أنا الكلام اللي أقوله يمشي على رقبتك، ورقبة اللي خلفوك .. إنت مش قادر تنفذه، ولا مش عايز عشان تسرقني في تلاتين .. أربعين يومية، يبقى تديني عرض قفاك وتسيب العزبة، وتشوفلك بلوة تلمك، مش بترقدلي وتقوللي طيب؟! طيبين يا حيوان، وأعلى ما ف خيلك – إن كان عندك خيل – روح يا خويا اركبه.

أطفئت كل المصابيح في عيون حميدة بل غربت الشمس بلا عودة، لقد أسقط في يده ولم يعد في دنياه ما يبقي عليه بعد إغلاق باب الرزق، فليكن ما يكون، فحين يضرب الأعور على عينه السليمة، فعلام يبقي؟ رد حميده على كل هذه الإهانات بمزيد من الوعيد:

- ماشي يا جعفر بيه.. إنت بتضربني على وشي وانت وراك ناظر عزبتك، وكاتب الدايرة والغفر اللي ما حدش يعرف ان كانوا شغالين عند الحكومة ولا عندك، لكن معلش. بكرة كل حي يعرف قيمته .. وكل حي يدفع ثمن اللي بيعمله.

وأنهي جعفر بيك الموقف بوقف المناقشة التي يرى في استمرارها هبوطا به من علياء موقعه إلى الجحر الذي يراه موقعا مناسبا لحميده، فوجه حديثه إلى ناظر العزبة:

- يا متولي .. الولد ده ما يباتش في العزبة، وما يدخلهاش، لا هو ولا حد من أهله.

انفض الجمع، وانصرف كل إلى شأنه الذي يشغله، وعاد جعفر بك إلى قصره، ومن شرفته العالية الفسيحة، رأى الناس جميعا أقزاماً أسفل منه، رأي

المخلوقات كلها صغيرة ضئيلة، وقدر لنفسه أنه بحاجة إلى عدسة مكبرة ليرى من خلالها الناس والأشياء – كان يرى العالم، تلك الكرة الصغيرة، وليس عليها من شيء يستحق الاهتمام إلا هو. رآها تنوء بحمل هامته، وتكاد تميد به من فرط ضآلتها، أو فرط ثقله .. لقد كان عملاقاً ضخم الجثة، منتفخ الأوداج. كان كبيراً في كل شيء؛ في ثروته، في سطوته، في عدد أولاده وزوجاته وفي غبائه وغروره .. وأكثر من ذلك كله، في هذه البطن التي تسبقه حيثما ذهب .. كان جعفر بيه كبيراً في كل شيء، أو هكذا رأى نفسه، وكان صغيراً في كل شيء، أو هكذا رآه الناس، حتى الذين قالوا له: أنت كبير يا جعفر بيه، كان بعضهم يقولها طمعاً في ثمن يتقاضاه، وكان آخرون يقولونها اتقاء لعقاب السكوت عنها، فلقد كان للسكوت عن تملق جعفر بك عقاب رادع.

لم يهجع جعفر بك إلى فراشه في تلك الليلة قبل أن يستوثق من رحيل حميده من العزبة ومعه زوجته وطفلهما الرضيع، وارتاح لذلك بتوقيع العقاب على من أساء معه الأدب من ناحية، وبذبح القطة على مشهد من أركان إدارته، ليرتدع الجميع، ولجيل كامل على الأقل.

ورغم أن زوجات جعفر بك أنجبن له عشرة من الأولاد، إلا أنهن لم ينجبن له من البنات إلا سوسن، ابنته من زوجته الأولى، الطالبة في الجامعة في عاصمة المحافظة على بعد عشرين كيلو متراً، تقطعها ذهاباً وإياباً في السيارة الخاصة التي يقودها سائق يتلقى منها – عندما تصل صباحاً إلى بوابة الجامعة – أوامرها بتوقيت انتهاء محاضراتها، لكي ينتظرها للعودة بها إلى العزبة.

مضت عدة أيام على واقعة طرد حميده من العزبة، واتجهت سوسن إلى الجامعة في الصباح، وأمرت السائق بالعودة لاصطحابها في الخامسة مساء. في الرابعة والنصف، كان السائق في الإنتظار في المكان المعتاد .. مضى الوقت حتى الخامسة، ولم تحضر .. الخامسة والنصف، ثم السادسة .. لم يعرف السائق كيف يتصرف سوى أن يعود إلى العزبة لإبلاغ جعفر بك، وتلقي أمره بم يفعل.

هاج جعفر بك، وماج، أين ذهبت ابنته؟ ولماذا لم ينتظر السائق لمدة أطول؟ رافقه جعفر بك ومعه أثنين من رجاله، وانطلقت السيارة بأقصى سرعة عائدة إلى الجامعة حيث وقفت أمام البوابة ونزل جعفر بك حيث اتجه مهرولاً إلى كلية الآداب يسأل كل من يصادفه عن ابنته، طالبات .. سعاة، وأبلغوه أن محاضرات السنة الثانية انتهت في الخامسة .. اتجه إلى الكافتيريا .. لم يجد لها أثراً .. ولم يجد من يدله على أثر لها .. عاد إلى السيارة وركبها وهو لا يعرف أين يذهب .. أمر السائق أن يتحرك، وحين سأله في أي اتجاه يسير، قال له:

- مش عارف .. اتحرك وخلاص .. لف البلد كلها.

قال له أحد مرافقيه:

- نبلغ البوليس يا بيه؟

وأجابه في حدة وبسرعة:

- لأ.. بوليس لأ.. مش عايز جُرْسه وفضايح.

وسأله الآخر:

- طب نروح نسأل في المستشفى يا بيه؟

ورغم وجاهة السؤال لكن التشاؤم تغلب على العقل فرفض موبخاً:

- الله يخرب بيتك إنت ولسانك الزفر ده .. إسكت .. إسكت خالص ..

وبعد جولة في المدينة مسحوا خلالها كل شوارعها وأزقتها؛ أمر السائق بالعودة إلى القرية لعلها تكون قد عادت.

وفي العزبة كان خبر اختفاء سوسن قد سرى سريان النار في الهشيم .. وتطوع المجاملون والمنافقون بأدوار، واقتراحات عما يمكن أن يفعلوه بحثاً عن الهانم الصغيرة، قال أحدهم:

- أنا حالِفّ ع الترع والمصارف حتى ابيار السواقي مش حاسيبها.

ولم يعلق جعفر بك رغم شدة القرف البادية على ملامحه، ولولا بداية انكساره الواضحة لكان لصاحب الاقتراح ما يتناسب مع ما ولَّده اقتراحه من شؤم.

وقال آخر:

- أنا حاخد اخواتي وأولادي واحوَّط البلد وننزل غيط .. غيط ونفتش خُصْ .. خص لغاية ما نلاقيها إن شاء الله.

ولما كان جعفر بك قد صام عن أي حديث وأصاب عقله الشلل عن أي فكر، وهزمه اليأس فعقد لسانه ولم يعرف ماذا يفعل، ولا ماذا يقول، فقد تصرف الجميع بما رآه كل منهم طريقا للعثور على سندس.

مضى الوقت وانتصف الليل، ولا أثر .. ولا أمارة تمثل بصيصاً من ضوء يهدي حتى لاحتمال يجعل التحرك في اتجاهه مبشراً.

وجاء الصباح، فاتجه جعفر بك إلى الجامعة يسأل في شئون الطلبة .. ويسأل المسجل .. فأبلغوه في بساطة أن الكلية لا تسجل الحضور والغياب،

لذا لا علم لهم إذا ما كانت ابنته قد حضرت في اليوم السابق أم تخلفت عن الحضور.

عاد إلى القرية، وقد تضاعفت في نفسه احتمالات الخطر، ونفاد الصبر .. سرح لحظات، وبرقت عيناه ثم انتفض واقفًا، فوقف الجميع وصوبوا أبصارهم نحوه وانتظروا في صمت وإنصات، قراراً أو توجيهاً، أو ربما أوامرًا تحدد لهم ما يفعلوه، وبالفعل؛ هتف بصوت عال موجهاً حديثه للجميع:

- حميدة .. هاتوا لي الواد حميدة من تحت طقاطيق الأرض.

ورد ناظر العزبة:

- حضرتك أمرت بطرده، واحنا نفذنا الأمر وساب العزبة في نفس اليوم يابيه.
- ما انا عارف يا بني آدم، حا يكون سافر الهند يعني؟ لفوا عليه الكام عزبة اللي حوالينا ومش عايز الليل يمسي من غير ما تكونوا جبتوهولي.

وقبل أن يتحرك أحد من مكانه، دخل الغفير سرحان ورفع قدمه اليمني عن الأرض ثم قابلها بها بشدة ورفع يده محيياً، ثم أخرج قصاصة من جيبه وقدمها إلى جعفر بك قائلا:

- فيه واحد راكب ماكنة إداني الورقة دي وقال لي اسلمها لجنابك يا سعادة البيه ..

انتفض جعفر بيه والتقط القصاصة وقد سبقت نواظره أصابعه لتقع على ما كتب عليها:

- بنتك في الأمان، لو كنت عايزها ترجع لك سالمة، أولاً ما تدخلش البوليس بيننا لأنك لو بلغت مش حاتشوفها تاني، وحضَّر شنطة فيها ميت ألف جنيه فلوس ورق قديم حانقولك ناخدها إزاي، وإذا كنت موافق، إبعت ناظر

العزبة يقف في موقف الكافوري في المركز من الساعة خمسة لغاية خمسة وربع انهارده ولما نشوفه نعرف انك موافق ونبلغك حا ناخد الفلوس إزاي، وتستلم بنتك إمتى، وفين.

قرأ جعفر بك السطور ولم تسمح له الدموع التي اغرورقت بها عيناه من استيضاح الأخير منها بسهولة، وأبى عليه كبرياؤه أن يرى خدمه الدموع تفر من عينيه، فصرفهم جميعاً، وما أن خرج آخرهم، حتى انفجرت آهة ملؤها الزفرات، ذات صوت محموم ومنكسر معاً .. ثم مال برأسه فألقاها بين كفيه اللتين أسند مرفقيهما على مائدة أمامه، وأجهش بالبكاء الذي سرعان ما تطور إلى نحيب، قطعته زوجته التي خرجت إلى الشرفة غير مدركة للتطور الأخير، فسألته في فزع ولهفة:

- فيه إيه يا جعفر؟ بنتي ماتت؟

وأجابها في لوعة:

- ياريت. بنتنا اتخطفت، واللي خاطفينها طالبين فدية، ويارب تيجي على قد كده.

وأجابت زوجته بقليل من الأمل، وكثير من الرجاء:

- ربنا كبير وقادر يردها لنا بخير.

أخيراً أيقن جعفر بك وزوجته أن الكبير هو الله، وان القادر هو الله، والملاذ هو الله وليس – بكل تأكيد – هو جعفر بك .. جعفر بك المحبط اليائس الذي لا يملك شيئا غير اللجوء إلى الله.

لم تستمر هذه اللحظات الإيمانية إلا قليلاً حيث انتفض جعفر بك على ذكر ما ورد بخاطره حين تذكر أن الوحيد الذي توعده هو حميده، ولابد أنه الفاعل وصاح بأعلى صوت:

- يا غفير.. إنت يا هباب

وفي لحظة كان الغفير منتصباً امامه مع تعظيم سلام معتبر:

- أيوه يا سعادة البيه.
- هو ناظر الزفت لسه ما رجعش، ولا فيش أخبار عن حميده الكلب؟
- لأ يا سعادة البيه.
- طيب أول ما يوصل هو ولا حد من الرجاله اللي خرجوا يدوروا على حميده طلعهولي على طول.
- حاضر يا سعادة البيه.

مرت اللحظات، والدقائق، والساعات، وتوافد الرجال، فكان جوابهم واحداً:

- انشقت الأرض وبلعت حميده، مالوش أثر، ولا حد يعرف له طريق جرة .. أخلي جعفر بك المكان وانفرد وزوجته مع الحزن والفكر، واعتصرهما الألم، وأحسا بالعجز واليأس، إضافة للطعنة الشديدة لكبرياء جعفر بك .. ولم يعد أمامه من بديل لتنفيذ ما طلبه الخاطف منه صاغراً، أعد حقيبة عبأها بالمبلغ المطلوب وبالمواصفات المحددة، وأرسل ناظر عزبته ليظهر في المكان المحدد دليلا على الموافقة والتسليم بمطلب الخاطف.

وحين عاد الناظر، سأله جعفر بك عن ملاحظاته خلال تواجده في موقف الأتوبيس "الكافوري" وعما إذا كان رأي أحداً ممن يعرفهم، أو لمح من يرقبه، لكن الإجابات كلها سالبة لا تهدي إلى أي استنتاج ولا تقود إلى أي

خيط .. جلس مهدوداً لا يملك غير الإنتظار .. مضى الوقت طويلاً وقاسياً قبل أن يدق جرس التليفون فخطف السماعة ووضعها على أذنه فسمع صوتا غير واضح توقع أن يكون صاحبه قد تعمد تغييره أو وضع حائلاً مثل منديل أو غيره بين فمه وبين الميكروفون .. المهم أن صاحب الصوت قال له في اقتضاب:

- إبعت السواق بالعربية بكرة الفجر ومعاه الفلوس في آخر العزبة عند أول طريق المركز وينزل من العربية ومعاه الشنطة ويرجع لورا عشرين خطوة ويسيب الشنطة يمين الطريق، ويرجع عربيته يقعد فيها لغاية بنتك ما تجيله. وزى ما اتفقنا مفيش خوانة عشان بنتك ترجع لك صاغ سليم .. ثم أغلق السماعة دون انتظار لتعقيب.

فكر جعفر بك في ترتيب كمين، أو إرسال من يرقب عن بعد علّه يتعرف على الخاطف لكنه حين قلب الفكرة .. وعرف أن ثمن الخطأ فادح، وأن حياة ابنته معرضة لأقصى خطر، استبعد الفكرة، وسلم الحقيبة الملأي بالنقود إلى السائق وأكد عليه الإلتزام بالتفاصيل التي كررها على مسمعه أكثر من مرة، وحذره من أي تصرف مخالف، ومضى السائق لتنفيذ المهمة.

وما هي إلا ساعة أو تكاد حتى عادت السيارة، وكأنما مر دهر قبل أن تلوح سوسن من شباك السيارة ويقفز جعفر بك وزوجته ويهبطان درجات السلم حيث تصل السيارة وتهبط سوسن فيحتضنها جعفر الأب ويبكي بحرارة، وتفعل الأم ما فعل الأب ويصحبان ابنتهما إلى داخل القصر ليستمعا منها إلى ما كان.

ولشد ما كان تعجبهما ودهشتهما حين قالت الإبنة:

- إعفوني من أي تفاصيل عن اللي حصل .. أنا وعدت إني ما احكيش حاجة.

وقاطعها الأب باستغراب شديد:

- وعدتي مين؟ اللي خطفوكي وذلونا وعيشونا يومين زي الزفت؟!

قالت في هدوء مستغرب على من عادت من عملية اختطاف يفترض أن يظهر تأثيرها المؤلم على أعصابها أياماً أو شهوراً:

- بابا .. أرجوك اسمعني مرة واحدة .. أنا اللي خطفوني ناس طيبين وبيحبوك وعايزين مصلحتك بدليل إنهم أكرموني وعاملوني على إني بنت الباشا مش البيه. ثانياً: رجَّعوا معايا شنطة الفلوس زي ما هي، واندە الأسطى عبد الله يجيبها لك، وبعتوا معايا رسالة طيبة وذكية ومخلصة .. قالوا لي:
- إحنا بنحبكم بس والدك بيعامل الناس على إنهم عبيد وعشان كده الناس بتكرهه وممكن تكرهكم معاه، مع إنه هو ولي نعمتهم ومهما يكن عايشين في خيره .. ولما ضرب حميده قدام الناس وطرده من العزبة بعد ما قطع عيشه حسينا ان حميده ممكن يقتله أو يولع في القصر، ولو ما عملهاش حميده لازم حد تاني حا يعملها، فقلنا نعمل الشغلانه دي علشان يحس انه مهما كان أوي، ممكن حد يضره أو يئذي حد من أهل بيته .. واحنا اخترناكي علشان عارفين أد أيه بيعزك وانت اللي حاتأثري فيه.

صمتت لحظة ثم توجهت إلى أبيها تقبل يده وتستعطفه قائلة ..

- أحلفك بالله يا بابا زي ما بتحبنا حاول تحب الناس اللي حوالينا واللي بيخدمونا علشان هما دول اللي لو حبونا حانعيش في وسطهم بأمان .. وياريت ترجع حميده يعيش معانا.

صمت الأب قليلا وتذكر الساعات القليلة التي تعذب فيها كثيراً، وكيف تصور أنه لن يرى ابنته من جديد، وكيف ضحى بالمال، وكان على استعداد لأن يضحي بكل ما يملك في سبيل عودة ابنته، ورغم حنقه الشديد على الخاطفين قبل عودة ابنته بقدر ما أكبر ذكاءهم في توصيل رسالتهم وسأل ابنته:

- وانت متوقعة أرجع حميده إزاي وأنا ما اعرفش طريقه، ولا حد من اللي كلفتهم يدوروا عليه يعرف له طريق.

وردت في ثقة:

- الناس اللي خطفوني أكيد يعرفوا مكانه.
- يعني هما تبعه؟
- وبعدين يا بابا في أسلوب البوليس ده؟ – لأ هما مش تبعه وهو والله لا يعرف ولا له يد في اللي حصل.
- وانت حاتتصلي بالناس دول إزاي علشان يبلغوه؟
- لو سمحت يا بابا توافق .. والباقي ده على الله ثم علي.
- طيب يا ست موافق والمسامح كريم.
- انطلقت سوسن بسرعة إلى السيارة وهمست في أذن السائق حيث مضى ثم عاد بعد ساعة، وأومأ لها برأسه، فتوجهت إلى أبيها:
- حميده حا يكون هنا الساعة ثمانية الصبح.

ولم تكن هذه الإشارات والردود الجاهزة لتخيل على فطنة جعفر بك، فلقد استنتج وفهم بما يقترب من اليقين أن كل ما حدث كان من تدبير ابنته بالإتفاق مع السائق ومع ذلك لم يثر ولم يهدد بل ربت على كتف ابنته قائلا:

ربنا يزيدك علم وذكاء يابنتي .. انت أزلت الغشاوة من على عيني .. وأنا من النهاردة حا عامل الناس كلها زي إخواتي، وربنا يكفي الجميع كل مكروه.

في الصباح التالي كان الأهالي رجالاً ونساءً وأطفالاً يستقبلون حميده بالطبل والمزمار ويهتفون بحياة جعفر بك حبيب الفقراء.

قلـب الحـــلاق

لم يكن دخلي يقل يوماً عن ضعف حاجتي للإنفاق .. ولم تكن لي أسرة أحمل مسئوليتها أو أبناء يشكلون عبئا في النفقات. كنت أكسب بجهدي جنيهين أو ثلاثة في كل يوم، وكان ذلك الدخل يعدل دخل وكيل وزارة في ذلك الزمن من الخمسينيات لذا فقد كنت أستجيب لكل رغبة من ملبس أنيق إلى مأكل منتقي ومشبع إلى مسكن مناسب استبدلت به مسكني الذي ولدت فيه وعشت بين جدرانه أكثر من عشرين عاماً، علاوة على ترفيه برئ ومصيف سنوي. كنت أقضي يومي سعيداً، وأبيت هانئاً لأستأنف عملي في اليوم الجديد، وقد غمرني فيض من الرضا، وكنت أدخر من أوراق النقد، أودعها في مكتب البريد في نهاية كل شهر، وأرقب زيادة الرصيد في دفتر الإدخار فتقر عيني وأطمئن إلى الغد، وأشعر بالأمان من غوائل الدهر، وغدر الأيام.

لكن شيئا واحداً كان يعكر علي صفوي، ويقلل من حالة الرضا التي أعيشها وهو طبيعة عملي، والصفة التي يعرفني بها أصدقائي وجيراني وزبائني وهي أنني حلاق. حلاق حريمي، يسمونني كوافيراً، أو مصففاً، لكنني في النهاية حلاق.

ورغم ثقتي في أن عملي شريف، وأنني أكسب بعرقي، وأن دخلي يمكنني من أن أعيش حياة لا يقوى على تحقيقها معظم زملائي في الدراسة، والذين ارتقوا على سلم المجتمع درجات أعلى حين تخرجوا من الجامعة فأصبح منهم الطبيب والمهندس والضابط والمحامي، وهي مسميات ينحني لها المجتمع قبل التدقيق في شخص المسمى بها، فلقد كنت أفوق معظمهم في الدراسة ومازلت أذكر أسماء زملائي الذين كنت موضع تقديرهم، وملاذ بعضهم عند تعثرهم أو

عجزهم عن إجابة سؤال خلال الدراسة في المدرسة الإبتدائية، لكن ذلك لم يمكنني من مواصلة الدراسة بعد وفاة والدي المفاجئة، وهو بعد في الأربعينيات، وميراثي لتركة ضخمة من الديون أوصلتني إلى شفا الجوع، فتركت الدراسة قبل أن أحصل على الشهادة الإبتدائية بثلاثة شهور، وحمدت الله الذي لا ينسى أحداً من خلقه، فقد قيض لي حنان الأسطى صاوي صديق والدي الذي ضمني إلى صالونه، وعلمني فن التصفيف، وسرعان ما اتصفت أصابعي بمهارة سعت إليها رءوس النساء، وأصبحت لي شهرة بينهن جذبت زبونات جديدات بفضل سمعتي، ولاحظ الأسطى صاوي ذلك، وحيث كان يعلم عن مدخراتي، فقد عرض علي استثمارها في تحديث المحل مواكبة للمحلات الحديثة التي تجذب العميلات مقابل مشاركتي له في نصف المحل، وحين أبديت حرجاً من ذلك، وعرضت عليه أن أدفع كل مدخراتي لعمل المطلوب على أن يردها إلى من العائد المتوقع مضاعفته، لأن مالي هو ماله حيث أعتبره في مكانة أبي وصاحب فضل كبير عليَّ، تعفف الرجل ورفض وأكد لي أن ذلك حقي ومقابل جهدي وعرقي، وأنه لا يضار بمشاركتي بل على العكس فإن نصيبه من ربح المحل سيزيد عن الإيراد الحالي بكامله، وبذلك نكون كلانا مستفيدين .. "ويا بخت من نفع، واستنفع".

أصبح دخلي كشريك، ومن "البقشيش" الكريم اليومي، يمثل مستوى يفوق طموحي المادي، لكن المقارنة بين صفتي كحلاق وبين زملائي "الأفندية" و"البهوات" كانت تكدرني – كنت أسال نفسي وقد أصبحت على مشارف سن الزواج: لو تقدمت إلى أسرة متوسطة لخطبة إحدى بناتها، وتقدم لها – في

ذات الوقت – ضابط أو محام لا يحقق نصف دخلي، فمن منا يلقي القبول؟.. والفتاة ذاتها هل يرضى غرورها الإقتران بحلاق أم بطبيب؟

ولحقت أمي بأبي، فأصبحت وحيداً في الدنيا، وشعرت بالعري الحقيقي فلا أهل ولا إسم عائلة ولا مكانة اجتماعية، ورغم عشرات المرايا في الصالون فلقد كنت زاهدا في النظر إلى إحداها، فلم أكن أريد رؤية نفسي على حقيقتها، ولا أعرف كيف أخفيها عن المجتمع الذي تخلص لتوه من النظر إلى الحلاق على أنه يمتهن مهنة خالية من الأخلاق .. المجتمع الذي ظل لعقدين سابقين يرفض شهادة الفنان والقرداتي في المحكمة.

كدت أيأس من شق طريقي المحترم في مدينة غير فاضلة..

كنت أقضي ساعات طويلة في الصالون مكيف الهواء ولا أشعر بالهواء البارد وإنما هي رطوبة الأنفاق .. كان الجو دائما معبقاً بأطيب أنواع "البارفان" وكنت أشم ريحاً غير طيبة تنتظرني في قادم الأيام. لقد كان حلم أبي أن يراني محامياً أقف أمام المحكمة مرتدياً الروب الأسود وعليه النسر المذهب، فإذا أنا أرتدي الروب الأبيض. وفي جيبي مشط ومقص .. يا لها من صورة متناقضة!

ارتقينا بمستوى الصالون، فكلما مر شهر أضفنا جديداً، حتى أصبح الصالون تحفة فنية، المرايا على كل الجدران، السقف يشع أضواءاً غير مباشرة، الهواء بارد صيفاً، ودافئ شتاء .. والستارة الهوائية تفصل جو الصالون عن جو الشارع، الأبواب الزجاجية الدوارة، الأحواض الرقيقة والمياه الساخنة .. الشامبوهات، الكريمات وأنواع صبغة الشعر .. الساشوارات، وفرش الشعر .. أمشاط وبشاكير تطهر بالبخار .. فوتيهات، وأرائك مريحة للمنتظرات، جرائد ومجلات عربية وغربية متخصصة في التسريحات وتزيين

الوجوه، عناية خاصة للعرائس اللاتي أصبحن يحجزن لدينا قبلها بأسابيع .. كنا نتحلي بالجمال قبل أن نبيعه.

تعاملت معنا بنات الطبقات الراقية، وأصبحن وسيطات في تذليل أي عقبات نصادفها. كن يعبرن عن سعادتهن بالفارق الجمالي لهن عند الخروج من الصالون عنهن عند الدخول، وكنت أسعد بما أراه في أصابعي من إبداع يدفع الفتاة المتسرعة التي يلهبها سوط الوقت والإرتباطات أن تنسى مشاغلها، وتركن للراحة وتندمج مع باقي المنتظرات في حوارات يصل بعضها إلى الإفصاح عن أسرار لا تكشف إلا لعزيز موثوق به .. وأنا أسمع وكأني جزء من المحل لا يسمع ولا يعي حتى أصبحت مخزناً للأسرار، وكن يثقن في ثقتهن في أنفسهن، كانت الرءوس داخل السشوار أمامي وأمام الأسطى صاوى، أو الأكف ممتدة أو الأقدام فى مواجهة إحدى المساعدتين اللتين عيناهما لمعاونتنا فى أعمال البادكير والمانيكير ورسم الحواجب وما إلى ذلك وتمر الساعات عليهن هينة وكأنهن فى جنة معبقة بالروائح الطيبة مدغدغة للعواطف لما يحيطها من حكايات وعلاقات .. تقول إحداهن لزميلتها متسائلة:

- أخبار جلال إيه؟ قابلتيه الأسبوع ده؟

وسؤال كهّذا كان كفيلاً باستدعاء قصة طويلة عن علاقة جلال بنعيمة منذ التقيا أول مرة، وتكون المداخلات والتعقيبات ضوءا على علاقات شباب آخرين، بفتيات أخريات، فى مقارنات ومبارزات أحياناً. كنت أتساءل عن سر كل هذه الثقة فى شخصي .. لست من بنات حواء مثلهن، لكنى كنت أستدعى – مقارنة مع الرجال – سؤالا خالداً: ألا يأتمنون الحلاق إلى حد وضع رقابهم تحت موسه؟

سارت حياتي إلى ما بعد العشرين دون علاقة بيني وبين الحب سوى حكاياته التي أسمعها من زبونات المحل .. واكتفيت بها، وقرر عقلي ألا أقترب منها فى تجربة شخصية حتى لا أصدم، فقد كان فتى أحلام كل زبونات المحل، من مهن جذابة، وليس من بينها حلاق .. كنت مقتنعاً بأن الحب سلعة حرة خلقها الله ليسعد بها الجميع، لكنني كنت أفرض على نفسي قيداً ألا أقربه قبل أن أحقق ذلك الأمل الذي آليت على نفسي تحقيقه .. كنت أعرف أن طريقه طويل، وقد لا تكون تجربتي على بدايته مشجعةً، فلقد تحمست مع بداية عملي مع الأسطى صاوي لكي أكمل تعليمي بالتوازي مع العمل عنده، فحصلت منذ ستة أعوام على الشهادة الإبتدائية التي كنت قد توقفت عندها، لكن اهتمامي بعملي وتدعيم إمكانياتي المادية، واجتهادي الشديد في العمل من أجل ذلك لم تمكنني من مواصلة الطريق.

ذات يوم، حضرت إلى الصالون عميلة جديدة برفقة صديقتها العميلة منذ أعوام، ومن خلال الثرثرة المعتادة، علمت أن والدها مدير بمديرية التعليم فطلبت منها أن تسأله عن إمكانية حصولي على شهادة الكفاءة السابقة على التوجيهية بعام وفوجئت بإجابة قاطعة أحرجتني كثيراً:

- لأ مش حا قول حاجة، ولا انقل سؤال وجواب.

تألمت كثيراً ورأيت إغلاق الموضوع بمثل درجة الحسم التي جاء بها الرد قسوة لا مبرر لها.

- طيب شكراً .. وآسف إذا كنت ضايقتك بالسؤال.

وضحكت بقهقهة مالت معها رأسها إلى الخلف .. وضحكت معها صديقتها بنفس الطريقة مما استفز مشاعري فوجهت لهما معاً سؤالاً استنكارياً:

- يا سلام؟ أوي كده الموضوع مضحك؟

وأجابت صديقتها بتدارك واعتذار:

- لا والله .. إوعى تزعل .. هي غمزتني قبل ماترد وهي تقولك ع اللي في بالها.

والتقطت الصديقة الخيط فأكملت:

- ماينفعش أقول لبابا سؤال يبقى محتاج لتفاصيل يسألني عنها، أقول له ما اعرفش. آجي أسالك تجاوبني وارجع .. طيب ليه ما أنا أحدد لك ميعاد مع بابا وتسأل وتجاوب ويقولك ع اللي انت عايزه .. ولو عايزني أكون موجوده تحت أمرك.

بعد أيام التقيت الرجل في مكتبه وأخبرني بعد عدة أسئلة أن من حقي بعد أن مرت ستة أعوام على حصولي على الإبتدائية أن أتقدم للحصول على الكفاءة من "منازلهم" وإذا أردت التقدم ذلك العام فعليَّ الإستعداد الفوري حيث يفتح الباب لتلقي الإستمارات بعد شهر واحد.

مع مرور الأيام تكرر تردد سعاد إبنة المدير مع صديقتها سلوى، وكانت تتابع معي تقدمي في التحصيل، وكان إعجابها بادياً بقدرتي على الإستذكار مع كل أعباء الصالون التي تزايد نصيبي منها مع تقدم الأسطى صاوي في السن .. أديت الامتحان ونجحت وأصبح من حقي التقدم في العام التالي للحصول على التوجيهية .. لقد اقتربت المسافة، وضاق الفارق بيني وبين أبواب الجامعة.

تدرج الحديث بيني وبين سعاد، ليبدأ بالسؤال عن الدراسة والاستذكار وينتهي بأحاديث متنوعة ثم ما لبث أن يبدأ دون حاجة للحديث عن الدراسة،

ثم ارتفعت الخصوصية، وكان الأسطى صاوي يفسح لي الفرصة لخدمتها حتي لو خالف ذلك الدور الطبيعي وكانت تجلس أمامي وقتاً أطول مما تقضيه الأخريات فقد كانت لدي أسباب للإطالة، أهمها اهتمامي الخاص بها، إضافة إلى رغبتي في البقاء طويلاً، وأناملي تعبث في شعرها، أسمع منها ما يطربني ويسعدني .. أسبوع واحد تخلفت فيه عن الصالون استعداداً للإمتحان، أحسست خلاله بشوق شديد، ورغبة جارفة في لقائها، وحين اتصلت بها لتحقيق ذلك، رفضت أن تضيع من وقتي دقائقا أنا في أمس الحاجة إليها، وطلبت مني ألا أنسى أنها هي الأخرى على أعتاب نفس الإمتحان، والتوجيهية ليست بالقليل.

أعطاني الأمل حافزاً شديداً لمواصلة الليل بالنهار؛ استذكاراً وتحصيلاً وتوقعت النتيجة مبكراً من خلال أدائي للامتحان.

نجحتُ .. وقررت أن التحق بكلية الحقوق، فتقدمت بأوراقي للالتحاق بها منتسباً ونجحتْ، وتقدمت بأوراقها لكلية الحقوق منتظمة .. ما أعظم قدرة الله فحين تكون مشيئته تذليل العقبات يسير الإنسان على حرير مسوقاً إلى تحقيق آماله في سلاسة وتوافق .. كنت أصلي لله شكرا فقد فاقت نعمه علي ما كنت أدعوه .. قربني وسعاد إلى درجة لم أكن أحلم بها، كانت تعجب بعصاميتي ومثابرتي، وكنت أقدر لها إنسانيتها ومعاونتي وتشجيعي .. أصبحت طالباً في كلية الحقوق، والأجمل من ذلك أن أصبحت هي الأخرى طالبة في نفس الفرقة..

نجحت في عملي وأصبح الصالون من أشهر صالونات المدينة، وأصبحت إسماً له معنى في عالم التجميل، وبالتالي أصبحت ميسوراً بل من

ذوي الدخول المرموقة .. وأصبحت المسألة .. مسألة وقت لا أكثر لكي يتحول البالطو الأبيض إلى روب أسود.

رحم الله أبي الذي كان يتمنى أن يراني علماً في ساحات المحاكم .. كانت الأيام تبدي لي أجمل ما فيها .. أحسست ابتسامة الزمن .. ورضيت بعدالة القدر الذي أقر لكل مجتهد نصيباً.

توازنت نفسيتي فلقد أصبحت زميلاً لمعظم المترددات على الصالون في الدراسة بالجامعة، وأصبحت قريباً من زملائي في الدراسة المبكرة حيث سبقوني فيها بعدة سنوات أسعى بنجاح إلى تعويضها، وأهم من ذلك كانت الأيام تقربني إلى سعاد، وتقربها إلي .. كنا متوافقين في أفكارنا، متفقين في مشاربنا، ممتلكين لطاقة وافرة من الإحترام والتقدير المتبادلين.

بدأ حبها يتضاعف في قلبي، وكنت أحس – واثقاً – أنها تبادلني ذلك الحب، لكنني لم أجرؤ على التعبير المباشر عن ذلك، ربما لأنها لم تعطني الفرصة لذلك، كان ذكاؤها المتقد وإحساسها المرهف يمثلان جرس الإنذار فحين أهم بالإفصاح المباشر عن حبي كانت تحول الحديث إلى مجال آخر، مرة عن المواد الدراسية، وأخرى بالحديث عن مناسبات عائلية أو علاقات بزميلات أو صديقات .. المهم أننا عشنا حالة حب لم نعبر عنها؛ وعلى أية حال فقد رضيت بذلك ما دمت أعيشه وألمسه، بل وأراه في عيون المقربات منها مثل سلوى التي قدمتها إلى أول مرة، وأيقنت أن مرور الأيام في صالحي، فلقد كنت أرى في الحب طريقاً إلى الزواج، وكان الوقت يقلل الفاصل الإجتماعي بيني وبينها، مما يمكنني من التقدم لأسرتها في ثقة لطلب يدها.

ونجحنا كلانا وانتقلنا إلى السنة الثانية ثم إلى الثالثة واختصرنا عامين من الطريق لكنني لم أر السعادة على ملامحها، رأيت ابتسامة صناعية تكسو وجهها حاولت أن تبدو طبيعية، لكن الإنسان الصادق لا يجيد الظهور على وجه مغاير لما يشعر به، حاولت استيضاح الأسباب، وفشلت في استجلائها، وتخلفت صديقتها سلوى عن الحضور لأسبوعين قضتهما في المصيف فحرمتني من المصدر الوحيد الذي كان من الممكن أن يكون بديلاً لتفسير الأمور.

وجاءت أجازة منتصف العام الدراسي، وقررت أن أصارح سعاد بحبي وأن أعرض عليها طلب يدها من والدها في بداية إجازة الصيف بعد الإمتحانات.

وقبل أن أفعل ذلك، وفي صباح أكثر حلكة من سواد الليل البهيم دخلت سعاد الصالون وملامحها مبهمة الدلالة وبرفقتها – ولأول مرة – والدتها ومعها سلوى، مشرقة مستبشرة، متهللة الأسارير فألقت على تحية الصباح ثم هتفت:

- حتاخد النهاردة أكبر بقشيش أخدته في حياتك ياسامي، على شرط تطلع سعاد من عندك فينوس مش أقل.

وأجبت في سذاجة وبتلقائية رافضاً لأي استنتاج:

- إيه يا أنسه سلوى؟ إنتي مش شايفة إنها فينوس من غيري؟ وبعدين أنا إمتى قصَّرت مع سعاد؟

ولمحت نظرة ذات مغزى استعلائي من والدة سعاد عندما نطقت اسمها غير مسبوق ب "آنسة" أو ملحوق ب "هانم"، وكأنها تستنكر علي التبسط مع ابنتها، وردت سلوى:

- لأ. المرة دي غير كل مرة يا أستاذ. انهاردة خطبة سعاد.

خطبة سعاد؟ ما هذا الذي تقولينه؟ لقد أهلْتِ علي جبل المقطم، أسقطت على رأسي أكبر أحجار الهرم. لا ليس ذلك حقيقيا..

ولكن أي دعابة سخيفة تطلقينها .. وهل هكذا فجأة؟ وفي المسار المعتاد لتقاربنا بل تمازجنا؟ أنا لا أصدقك، ولكن ما سر حضور والدتها برفقتها ولأول مرة؟ ولماذا هي صامته متجهمة لم تعلق على سخافتك؟

وإذا كان هذا صحيحاً فلماذا جاءت هنا، إلى أنا لكي أزينها وأقدمها إلى غيري؟ هل هي رغبة في انتقام؟ ممن؟ ولماذا؟ هل هي بساطة مفرطة أم خلو بال إنسانة لم تفهم ارتباطنا؟ وهل بيننا ارتباط؟ أليس افتراضاً مني، بنيته على شعوري الجارف نحوها وتفسير خاطئ لبعض تعليقاتها، وتعاطفها معي؟ وهل هو تعاطف معي أم عطف علي؟ كل الفروض سقطت في لحظة، وسقط معها بنيان شامخ يبدو أنني أقمته على رمال الشاطئ ثم جاءت موجة عاصفة أعادته إلى أصله، حبات من الرمال تدوسها أقدام، وتبددها موجات جديدة .. تمايلت وكأنني في الطريق إلى السقوط، ولاحظت سلوى فسألتني:

- مالك يا سامي؟ إنت حاتقع ولا إيه؟
- لا .. لا .. مفيش حاجة دا بس أثر الصيام من غير سحور.
- صيام إيه دا فاضل على رمضان خمس شهور؟
- أنا با صوم اثنين وخميس وانهارده الخميس يا سلوى.
- ما شاء الله ربنا يزيد إيمانك.

أما سعاد فلم تشارك في الحديث ولم تنبس ببنت شفة، جلست أمامي على الكرسي استعداداً لأدائي مهمتي، كذلك لم تشارك والدتها التي جلست

على أريكة خلف ابنتها، أما الأسطى صاوي العجوز الرءوم، فقد كان هو فقط الذي لاحظ ما أنا فيه، وتوقع ما أشعر به فعرض علي أن يقوم هو على خدمة سعاد بدلا مني ليترك لي فرصة للراحة واستيعاب ما يجري، لكنني رفضت الاستسلام لهذا التعثر، وصممت على أن أقوم أنا بخدمتها ككل مرة منذ عرفتها وكان الأسطى صاوي يفسح لي المجال لذلك ويهيء الأمور لكي تبدو طبيعية .. بدأت العمل ولاحظت من خلال المرآة التي أمامي أن سعاد واجمة، بل انطلقت مع خيالات بعيدة، كما تعمد الأسطى صاوي أن يشغل والدة سعاد وسلوى في أحاديث لم تكن بعيدة عن صلب مهنتنا ربما ليشغلهما عن متابعتي وملاحظة ارتباكي.

أما أنا فقد أمسكت بالمقص أعمله في شعرها دون تركيز، وظللت أقص وأقص حتى صمت الأسطى صاوي لحظة يلتقط خلالها أنفاسه أو يبحث عن خيط لحديث جديد، ووقع نظر ثلاثتهم على رأس سعاد التي لم يعد بها غير قليل شعر مبعثر على هيئة نتف تفصلها مساحات تظهر فروه رأسها .. وقفز الأسطى صاوي إلى حيث، كنت ليقبض على معصمي في محاولة لوقف المأساة، أما الأخريتان، فانطلقتا نحوي يشبعانني لكما ورفسا، وصحوت على هذه الفاجعة. لم تؤلمني اللكمات، ولكن رأس سعاد هي التي أدمت قلبي وأوخزت ضميري، فأخذت أكرر اعتذاري وأسفي اللذين لم يغنيا عني شيئاً واستمرا في ذلك رغم توسلات الأسطى صاوي حتي فقدت الوعي وإن لم يكن بي وعي قبلها..

وأفقت على سريري في منزلي، والأسطى صاوى ومعه طبيب استدعاه لفحصي وتطبيبى حيث كتب تذكرة دواء رفضت شراءه لأن دوائي لم يكن لدي

الصيدلاني .. وقبل أن ينصرف الطبيب دق جرس الباب وفتح الأسطى صاوى ليري – في غير مفاجأة – شرطياً يحمل استدعاءً لي لمرافقته إلى قسم الشرطة، فأبلغه أنني مريض وعاجز عن الحركة واستشهد بالطبيب لوصف حالتي، وأبلغ الشرطي أنه مسئول عن مرافقتي إلى قسم الشرطة في اليوم التالي ووقع له بذلك على طلب الإستدعاء.

لم تصرفني آلامي عن التفكير في كيفية الإعتذار لسعاد أو التكفير عن فعلتي غير المبررة من وجهة نظر أي إنسان يصعب أن يقدر حالتي .. ولم يشغلني التفكير فيما ينتظرني من إجراءات قد تصل بي إلى السجن، وإنما شغلني تقدير مشاعر سعاد نحوي بعد هذه الفعلة النكراء.

أحيل محضر الشرطة إلى النيابة العامة، ولم أجهدها في التحقيق فأحالتني إلى المحاكمة معترفاً بذنبي.

في قاعة المحكمة كانت المعالم جديدة عليَّ فلقد كانت المرة الأولى التي أدخل فيها إلى المحكمة؛ منصة عليها قاض، وإلى جواره سكرتير للجلسة، وعلى منصة أخرى ممثل النيابة يصول ويجول ويكاد يطالب برأسي ويطلب من المحكمة ألا تأخذها بي شفقة ولا رحمة بعد أن شوهت عروساً في ليلة عرسها، إلى آخر هذه العبارات الروتينية، وفي مواجهة المنصتين وقف محام عن الادعاء يصرخ بغضب مطالباً بإنزال أقصى العقوبة عليّ، رغم أن القاضي استوقفه مرات لمواجهتي بالتهمة الموجهة إلى، ومن خلفه جمهور غفير من أقارب سعاد والأسطى صاوي وحضور الجلسة ممن لهم صلة ببقية القضايا المدرجة في ال "رول".

توجه القاضي إلى حيث أقف خلف قضبان القفص قائلا:

- المتهم سامي عبد الغفار الروبي .. موجود؟

قلت:

- موجود يافندم.
- إنت متهم بتشويه المدعوة سعاد بيومي على الوجه اللي سمعت تفصيله من السيد ممثل النيابة، فما قولك؟
- أعترف أنه حدث مني ذلك بدون قصد.
- معاك محامي.
- لأ مش عايز محامي أنا حا ادافع عن نفسي.
- يبقي ننتدبلك محامي يدافع عنك.

وصاح صوت جهوري في الممر بين مقاعد الجماهير:

- أنا عثمان عبد الهادي المحامي وحاضر عن المتهم يا افندم ودا توكيل لي بذلك.
- ووجهت حديثي للقاضي بصوت مرتفع:
- أنا أرجو عدالة المحكمة أنها تعطيني الفرصة للدفاع عن نفسي

ورد القاضي:

- طيب حانسمع برضه منك اللي عايز تقوله. لكن القانون بيفرض وجود محامي معاك يكفل لك دفاع محترف ودارس.

قول يا سيدي، عايز تقول إيه؟

تذكرت حلم أبي في أن يراني محامياً أترافع عن المتهمين في قضايا كبرى أحصل لهم على الإنصاف والبراءة، وحمدت الله على رحيله قبل أن يراني في القفص، فأشرت إلى القاضي بيدي مخاطباً إياه:

- سدي القاضي:

وقاطعني القاضي مبتسما:

- من غير ما توجه الحديث. إنت مش حا تترافع، إنت تحكي الوقائع ببساطة وتفسرها من وجهة نظرك .. ياللا يا متر.

وضجت المحكمة بالضحك مع ابتسامة من القاضي تلتها طرقات على المنصة كأمر للحاضرين بالسكوت مفسحاً لي فرصة الحديث.

- أنا أتمتع والحمد لله بسمعة طيبة ولم تصدر عني طوال سنوات، سقطة أخلاقية أو حرفية، يزداد زبائني باطراد نتيجة تزكيتي ممن تعاملن معي مرة و...

قاطعني القاضي

- إنت جائ تعمل إعلان في المحكمة يا سامي؟ خش في الموضوع على طول .. ومعاك دقيقتين بس
- المجني عليها زبونة المحل منذ سنوات وهي صاحبة فضل علي، وهي اللي فتحت عيني على فرصة إكمال دراستي للمرحلة الثانوية وانا دلوقتي في ثالثة حقوق ولا يمكن تمتد إيدي بأذى لسعاد ولكن أنا انتابتني حالة لغاية دلوقتي مش قادر أفسرها، وأنا راضي بأي عقوبة توقعها علي المحكمة. المهم تكون عقوبة مرضية للإنسانة اللي جنيت عليها من غير ذنب.

وأشار القاضي إلى المحامي المتربص المتحفز الذي تفرست في ملامحه الغاضبة وتعرفت عليه، إنه عزت السلحدار زميل الدراسة في المدرسة الإبتدائية، أحد كبار الأغبياء، ولكم أنقذته من أيدي المدرسين بالهمس له بإجابة الأسئلة التي كان المدرسون يوجهونها إليه، كان يلجأ لي في هجاء

كلمات اللغة الانجليزية، وفي إعراب مفردات النحو في اللغة العربية، وها هو قد أصبح محامياً لامعاً اشتهر بأنه لا يخسر قضية لأنه يتبع نفس أسلوبه في الغش؛ يكتب له المحامون العاملون في مكتب أبيه؛ المحامي الكبير، المذكرات، ويقوم فقط بقراءتها في المحكمة، ويقوم والده بدراسة القضايا المعقدة ويفك طلاسمها، ويضع يده على وسائل البراءة لموكله إن كان متهماً .. المهم؛ أحسست من انفعاله الشديد، أنه ليس مجرد محام عن موكلة .. ولم يدع لي وقتاً طويلاً للتفكير فقد أفصح في مرافعته عن أنني سلبت فرحة عمره .. حيث شوهت خطيبته في ليلة خطبته لها ولابد من عقوبة رادعة لمثلي من المعقدين الحاقدين..

أصبحت أنا من يحقد عليك يا عزت؟ أقصد يا أستاذ .. نعم أستاذ باعتراف المجتمع بل إن القاضي نفسه يخاطبك بيا أستاذ .. تباً له من مجتمع ينصب ابن المحامى محاميا دون تقييم لشخصه وبنفس القياس فأبى الميت يورثنى صفة ميت .. علىَّ أن أعيش ميتاً فى نظر المجتمع.

إستمر الأستاذ/ عزت يستخدم كل الألفاظ القاسية واستدعاء كل مواد قانون العقوبات .. وجلت بنظرى أبحث عن سعاد بين الحاضرين، فقد كان شعورها هو ما أهتم بإستقرائه من ملامحها .. ولم أجدها فلم أجد ما يشغلني غير الإصغاء لترهات زميلى العزيز سابقاً .. وفى قمة الدراما التى فجرها فى المحكمة فوجئت بسعاد تدخل من باب القاعة كسيرة؛ وانكسر معها قلبى، مطأطئة رأسها التى غطتها بإيشارب لفته بإحكام عليها .. وتقدمت بخطى بطيئة نحو المنصة وقبلها بخطوة توقفت وقاطعت المحامى موجهة حديثها إلى القاضى:

- سيادة القاضى .. ممكن أتكلم ..

تجهم القاضي وعنفها متسائلاً:

- إنتي مين؟ وازاي دخلتي وقاطعتي الإجراءات والمحامي بيتكلم وعايزة تتكلمي؟
- أنا سعاد بيومي، المجني عليها وجاية أتنازل عن حقي وبا ارفض توكيل الأستاذ عزت.

وانبري عزت المحامي ممارسا لحقه في استمرار المرافعة:

- أنا أرفض تنازل الآنسة سعاد بصفتي موكلا من ولي أمرها حيث أنها قاصر ولا تملك قانوناً التنازل، فضلاً عن إلغاء توكيلي إدعاءًا بأن ذلك لصالحها لأنها ليست من أصدره.

وقاطعته سعاد بمفاجأة من العيار الثقيل:

- أنا بلغت الرشد أول أمبارح لأن سني تجاوز الواحد وعشرين سنة.

وقدمت إلى القاضى صورة من شهادة ميلادها .. فاطلع عليها وطلب من السكرتير ضمها للملف وإثبات تقديمها .. وأغلق باب الحديث قائلا:

- الحكم آخر الجلسة:

وفي آخر الجلسة جاء الحكم ببراءتي مع حيثيات مختصرة لتنازل المتضررة صاحبة الشأن "ومراعاة لمستقبل المتهم الذي مازال في مقتبل العمر وبداية حياته العملية إضافة لكونه دارسا بالجامعة".

لم يقلل من فرحتي غير الصيحات واللعنات التي صبتها أم سعاد وأبوها على رأسها وتهديدهما بالتبرأ منها لتفريطها في حقها قبل إنسان لا يستحق عطفها.

مرت الأيام ولم تعد سعاد تتردد على الصالون لكني كنت أطمئن عليها من الحين للحين بلقائها في الجامعة وتابعت معها تطبيع الأمور مع أسرتها بعد أن فسخت خطبتها .. وبمرور الوقت سلم الجميع بالواقع وأقروا برغبة سعاد في تأجيل فكرة الزواج إلى ما بعد التخرج.

بعد عام نجحنا وحصلنا على ليسانس الحقوق، وانتسبنا لنقابة المحامين .. تحقق الحلم، وارتديت الروب الأسود عن استحقاق وإقرار من كلية الحقوق ومن نقابة المحامين.

اتصلت بسعاد وطلبت منها الحضور إلى الصالون، وحين ارتديت الروب، وقفت أمام المرآة .. وسألتها:

- هل تقبليننني زوجاً؟
- بكل تأكيد .. لقد انتظرنا ذلك اليوم لسنوات ولكن أرجو أن تفكر جدياً في إجابة السؤال:
- هل تذكر مثلاً قلته لي يوما: "خير لي أن أكون الرجل الأول في قريتي عن أن أكون الرجل الثاني في روما؟"

قلت:

- بكل تأكيد
- قالت: تحب تكون أكبر كوافير، ولا تكون أصغر محامي؟

فاجأني السؤال واضطررت إلى رده إليها:

- رأيك إنتي إيه؟
- قالت: أنا صاحبة السؤال ومعنى إنه شغل أفكاري، يبقى ربما لي رأي وربما تفضيل معين لكن من حقي ألاقي جوابه عندك.

قلت في نفسي:

ومن حقي أن أقلب الأمر وأن أقتله تحليلا ودراسة ثم نتخذ قرارنا معاً.

****

عـــازف العـــود

أحس وقع أقدامي على نفس الرصيف، فاستوقفني وطلب مني مكرمة أن أصحبه إلى مكان قريب، ولم أكن لأرفض طلبا لرجل في نهاية الخمسينيات، ضرير في طريق يعج بالسيارات وحركة المارة.

ما كدت أوافق على تلبية طلبه حتى أمسك بيدي، وضعها تحت إبطه وسرنا نشق لأنفسنا طريقا وسط الزحام على الرصيف الذي تقطعه كل العوائق؛ أكشاك المثلجات والسجائر .. كراسي وموائد المقاهي، الأحجار وإطارات الكاوتشوك التي يضعها أصحاب المحال أمام محالهم، مهابط الجراجات، والأرصفة الخاصة، المرتفع منها عن الرصيف والمنخفض، والواقفين أمام الفاترينات بفواصل لا تسمح بالمرور إلا من خلال أجساد البشر، وما أكثرها.

بدأ الرجل بإبداء الحسرة على أذواق الناس الذين لم يعودوا يقدرون الفن أو يتذوقوه بعد أن ساد فن الحواوشي – ولما كان التعبير جديداً لم أسمع به من قبل – فقد سألته عما يقصد .. قال:

- رغيف الحواوشي، رغيف فيه جرام لحمة، ومية شغت على دهن وفلفل وشطه كتير ما يخليكش عارف إنت بتاكل إيه .. وفيه ناس دلوقتي بيسموا نفسهم فنانين، يجيبوا كلام ما أنزل الله به من سلطان مع صوت ضعيف وعمره ما اتدرب ولا له في الغنا، ويحطهم على مزيكا تطرش الودان، وتسمع زيطه لا تبقى عارف دا مين ولا بيقول إيه وكله يتساوي: حواوشي.

استهواني حديث الرجل وقررت مسايرته إحساساً مني بثقافته الفنية وتعبيراته الصادقة واللاذعة فسألته عن الفرق بين أيامنا، والأيام الخوالي التي يترحم عليها. قال:

- أنا لما كنت أغني زمان من مقام "بياتي"، ألاقي الناس بتتجاوب معايا، ولما واحد منهم يطلب غنوه، ألاقيها من نفس المقام، زى:

يا سيدي أمرك – رمش عينه – الحلوة داير شباكها – حلوين من يومنا– وانا مالي – سالمة يا سلامة – صلاة الزين – إرحمني وطمني– وده دليل على الفهم والوعي. ولما انقل ع الصبا، ألاقي الناس بلَّمت، واتأثرت بالمقام وطبعه الحزين زى أغاني زينه .. ع الحلوة والمرة .. هو صحيح الهوى غلاب .. صافيني مرة .. وعلى قد الشوق .. يا مالكا قلبي وسواح وسمرة يا سمرة وبين شطين وميه.

ومتقولليش بقى ع الكورد ونغماته اللي كلها إحساس، ومشاعر حقيقية. عشان كده الملحنين بيستعملوه في تلحين الأغاني العاطفية الجميلة: أهو دا اللي صار– أول مرة – توبة – آه منك يا جارحني .. نسم علينا الهوي .. حتى مقام العجم بمرحه وخفة دمه اللي الفنان العظيم محمد فوزي – الله يرحمه – عمل منه الأغنية الحلوة: آي والله .. وشوف بقي مقام نهاوند اللي اتلحنت منه أغاني ما تتنسيش: ذكريات – لما بدا يتثني – يا مسافر وحدك – مابيسألش عليا – ياللي سامعني – ياحلو صبح – خسارة خسارة – وغيرها .. وغيرها.

القصد، إن الفنان كان عارف هو عايز يقدم إيه، ويختار المقامات اللي توصل اللي هو عايزه للناس اللي حاتسمع، وكانوا المطربين بيغنوا النغمات من مكانها الطبيعي.

وسألته عما يقصد ففسر لي:

- يعني مقام الرصد من ال"دو" والبياتي والحجاز والكورد من ال "ري" الخ لكن دلوقتي ياصاحبي، المطربين بيغنوا – قصدي ولا مؤاخذه بيسرخوا من

نغمات الجواب، والغنا بقى أشبه بالعويل، بيغنوا في مساحة صغيرة زى مساحة أغاني الأطفال، وكل واحد عاجبه نفسه وعاجبه صوته. بالمختصر، اللي بينهقوا دلوقت راكبين عربيات سبعة متر واللي بيقولوا فن راكبين جزم دايبة.

وتوقف فجأة عن الحديث قبل أن يستدرك موجها إلى سؤالاً:

- إحنا وصلنا فين دلوقتي يا باشا..

قلت له:

- إحنا في ميدان سليمان باشا..

قال:

- طيب الحمد الله قربنا قوي، ياريت تكمل جميلك وتدخلني شارع هدي شعراوي وتوصلني قهوة باريس.

وافقته، ولم أكن لأتركه في مثل هذا المكان فعبرنا الميدان وأكملنا طريقنا في شارع سليمان باشا ثم دلفنا إلى شارع هدى شعراوي وعبرنا تقاطعين قبل أن يقع بصري على المقهى الذي لم أكن أعرفه من قبل؛ مقهى فسيحاً متسعاً له أربعة أبواب كل اثنين منها في شارع. إمتلأ الرصيف على ناصية الشارعين بالمقاعد والمناضد، معظمها مشغول بالرواد، وأقلها ينتظر من يشغله. وأحس الرجل بوصولنا قبل أن أخطره بذلك، ربما رهبة ما يتوقعه قد دبت في أوصاله فطلب منى أن أجلسه على أحد المقاعد وسط جمع من الرواد وفعلت، فشكرني وانصرفت.

لم أبتعد عن المكان، وشدني حب الاستطلاع إلى البقاء لأشهد ما يكون وأستمع لبعض النغمات لأطابقها على المقاييس التي حاضرني بشأنها.

رأيت رجلا رث الثياب، كل ما عليه بال وقديم، قد يكون ذلك تعبيراً عن ميل الرجل للكلاسيك، وقد يكون بسبب الكلاسيك. تهدل شعره وتدلت منه خصلة على عينيه المغمضتين، يلبس حلة ذات لون غريب كأنه تراب تم عجنه بالزيت وقميص كان لونه أبيضاً قبل إن يبهت عليه الزمن ويبدل ذلك اللون إلى ما يقرب من الرمادي وهو يستكمل مظاهر أناقته الرسمية برباط عنق هو أقرب إلى حبل تم ربطه منذ أعوام ولم يغادر عنقه .. بالإختصار؛ يبدو الرجل وكأنه قد انتشل لتوه من نهر النيل بعد أن علق كل طميه على ملابسه، أما الحذاء فحدث ولا حرج، فلاتستبين ملامحه ولا لونه، أما الجوارب فلم تكن إلا قطعة من جلد رجله اتسخت وبدت كأنها لم تغسل منذ ودع بطن أمه.

إعتدل الرجل في جلسته، وأخرج من كيس قرمزي اللون في الأصل، آلة العود، صديق ورفيق عمره الذي كره من أجله كثيراً من الناس، وكرهه كثيرون آخرون، أوقعه القدر في يد الفنان الذي لايعرف الإحالة للمعاش بل تمتد خدمة ما يعاشره إلى أقرب الأجلين .. كان عوده عتيقا، لم أتبين من البعد سلامة أوتاره .. المهم وضع الرجل ساقا على ساق، وأمسك بالعود "وعفقه" ولف مفاتيح الأوتار وبدأ (يدوزن)، ويجذب الأوتار وعيناه مغلقتان – وقد يكون ذلك من حسن حظه– حتى لايرى انصراف الناس عن سماعه حيث تجمعوا في مجموعات بعضها يدخن "الشيشة" وتنطلق منها "كركرة" عالية والبعض يتجمع في نشاط مثل لعب الطاولة أو الدومينو، فطغت أصوات عالية متداخلة:

شيش جهار .. دش .. يبقى مارس .. واحد شاي بالحليب .. عشرة غيرها .. ومع هذه الأصوات علا صوت الراديو .. وأرهفت السمع علني

أستخلص صوت العود، واضطررت للإقتراب أكثر وأكثر حتى أستمع للعود لكن صوتاً أقوى، اخترق سمعي، كان ذلك هو صوت الجرسون وهو يطرد صاحبناً عازف العود حفظا لمشاعر الزبائن وخوفاً من استيائهم، وتقززهم من ضجيج العود الذي يفسد عليهم استمتاعهم بما انشغلوا فيه، ونغمات الراديو .. دس الرجل عوده في الكيس وحمله تحت إبطه ووقف يتمتم بكلمات لم أستوضحها فسألته عما يقول .. وتعجب الرجل من بقائي واقفا بالقرب منه .. وقال:

- وهل يعزف الراديو من تلقاء نفسه؟ وهل صوت "القوا شيط" على خشب الطاولة أفضل من صوت العود؟ عجباً! يشترون الراديو بعشرات الجنيهات ويضنون بمليمات على عازف العود!

سألته عما هو فاعل، قال: إلى مقهى آخر فقد أجد من يسمع العود، أو أجد من يجود قبل أن يطردني الجر سون.

ودعته والدموع في عينيه .. إنطلق يبحث عن إنسان طيب يصل به إلى مقهى آخر لعله يجد من يستمع إلى العود.

****

شقـــة الأحـــرار

(١)

بحثوا عن مكان يقيمون فيه بالقرب من جامعة القاهرة التي التحقوا بكلياتها .. أكبرهم حنفي – انتسب لكلية التجارة قبل ثلاثة أعوام وتسلم عملاً في محافظة القاهرة، وشقيقه حسنى الذي التحق قبل أيام بكلية الحقوق، وابن خالتهما عبد الشافي الذي أصبح طالبا بكلية التجارة .. لم يعيهم البحث طويلاً حيث وجدوا ضالتهم في غرفة على سطح أحد المنازل بشارع سليمان جوهر التجاري والممتد فيما بين شارع نوال؛ الحد الجنوبي للعجوزة، وميدان الدقي على مسيرة بضع دقائق من الجامعة.

المنزل مكون من ثلاثة طوابق؛ في كل طابق شقتين بكل منهما ثلاث حجرات وصالة ودورة مياه ومطبخ، يسكن في كل حجرة طالبان أو ثلاثة، والمنافع "الصالة والمطبخ والحمام" مشتركة، والطابق الرابع سطح مفتوح فيه منشر للغسيل، تمتد بطوله حبال وأسلاك، وفي طرفه غرفة واحدة بجوارها دورة مياه مستقلة، ويبدو أن الغرفة والدورة كانتا للمنفعة العامة لسكان العقار – حيث كانوا يسمونها في ذلك العهد: غرفة الغسيل –، وأن صاحبة العقار لجأت إلى تأجيرها اقتناعا بمبدأ تأجير الغرف وليس الشقق حيث يحقق عائدا أعلى.

بحسبة بسيطة أصبح ذلك البيت يضم صاحبته: "الست" هناء وحوالي أربعين طالبا معظمهم في كليات جامعة القاهرة ومتوسط أعمارهم عشرين عاماً .. كلهم عزابا، بطبيعة الحال، وكلهم غرباء عن الأهل الذين يقيمون في الأقاليم خارج القاهرة مما يوفر عاملين هامين من عوامل الإنحراف، لكن قلة

الإمكانيات المادية، ورقابة الست هناء، كانتا عائقين كؤودين في طريق ممارسة ذلك الإنحراف.

في أسفل العمارة؛ أقامت الست هناء – المالك والحارس – والتي كانت لديها حساسية من تحرير العقود للسكان، وحين كان البعض يطالبها بذلك، كانت تكرر على مسامعهم:

- عقود إيه ياولاد، خلوها على الله دا انتوا ولادي سيبوها ماشية بالبركة.

كانت الست هناء، سيدة محيرة، لا أحد يعرف لها أهلا، ولا أحد يعرف كيف آل إليها هذا البيت، كما أن تعاملها مع الجيران، ومع السكان لم يش بشيء يمكن من تحليل شخصيتها أو توقع تصرفها، فقد كانت حاسمة، إلى حد القسوة حينا، وكانت حانية متساهلة أحياناً، كانت تكرر على مسامع الجميع أن الأدب فضلوه على العلم، وأنها لن تتهاون في سمعة منزلها في المنطقة، وأن (من يلعب بديله)، ستقطعه له، وكانت تتعاون أحياناً، وتتعامى عن أمر جلل، كدخول أنثى إلى إحدى الغرف.

وكان الشباب يتناوبون مراقبة الست هناء حتى توصلوا إلى تحديد شبه دقيق لجدول تصرفاتها اليومي، متى تصحو، متى تنام، متى تفتح الشباك على الشارع ومتى تفتح باب الشقة ترقب من خلاله المدخل والسلم. وهكذا أصبح لديهم تحديداً للتوقيتات المناسبة للإفلات من الرقابة.

ولم يكن سكان الشقق الخمسة كثيري الاستغلال لهذه الفرص، لكن سكان غرفة السطح كانوا مختلفين عن باقي الطلبة السكان.

كان حنفي هو الأوفر حظًا من حيث الاستقرار المادي؛ موظف يتقاضى أجراً شهرياً شاملاً يصل إلى ثلاثة عشر جنيهاً، عاطفي يتمتع بحس أدبي

عالٍ؛ يكتب القصة والرواية، وله تمثيلية أذيعت بإحدى سهرات الإذاعة كما يقرض الشعر في حالات قليلة حين يتعرض لما يستدعي شيطانه .. كان في الثانية والعشرين من عمره، توظف بالثانوية العامة وانتسب لكلية التجارة حيث رسب في السنة الأولى ثم نجح وانتقل إلى السنة الثانية فالثالثة، كانت علاقته بالجنس غامضة نوعاً ما فهو لم يتحمس كثيراً لخطط استقدام النساء إلى الغرفة التي يسكنها مع شقيقه، وابن خالته، لكنه أيضاً لم يعترض أو حتى يسخف من الفكرة، ولم يسأله أحد عن أسباب ذلك الحياد لأن رفيقيه كانا يعلمان بحقيقة مرضه بالفشل الكلوي وتركيب قسطرة كان هو يسخر منها ويمزح كثيراً بشأنها، رغم إحساس المحيطين بمدى المأساة وخاصة حين تزايدت نسبة البولينا، أو التسمم في دمه، ومضى في طريق كان هو نفسه والرفقاء يستوثقون من نهايته.

بعد حصوله على الثانوية العامة من ميت غمر بمحافظة الدقهلية، حضر إلى القاهرة، ومع الوظيفة والإنتساب للجامعة، تعرف على حمدي الذي كان يسبقه بعام دراسي وتخرج في نفس العام الذي حضر فيه شقيق حنفي وابن خالته إلى القاهرة وحصل على وظيفة بشركة كيما، وسافر إلى أسوان للإقامة فيها، وترك حنفي ليسكن مع القادمين الجديدين في غرفة سليمان جوهر.

أما شقيقه حسني؛ فكان شخصية خالية من السمات المميزة بمعنى أنه كان أقرب إلى الإعتدال في معظم سلوكياته، ولم يكن يتضح من ملامحه ما يشكل صفة تستدعي النظر سوى ملمحين: إهتمامه فوق العادي بالإرتواء الجنسي، وميله إلى مجالس المرح، وامتلاكه لقدر من روح الدعابة، لذلك لم

يكن هو الطرف واضح التأثير في سلوك الثلاثة، وإنما كان في معظم الأحوال مسايراً لما يجري، موافقاً على ما يتم، مشاركاً فيه بقدر معتدل.

أما ثالث الثلاثة فتركيبة بشرية، يقف عندها كل من يتعرف عليها بالتحليل ومحاولة الفهم والتفسير، أو بالتتبع والإندهاش، أو المشاركة بدرجة من درجات الحماس، أو التبعية والإنقياد، أو الإعجاب والتعجب، المهم أنه كان شخصية مثيرة للجدل، كانت بصماته واضحة، ولم يكن يرى حرجاً في إعلان ما يفعله، بل وما يفكر فيه مهما كانت درجة اتفاقه أو اختلافه مع الدين، أو الأخلاق، أو العرف، أو أي من الحواجز الاجتماعية، أو المحددات السلوكية السائدة.

كان عبد الشافي إبن السبعة عشر عاماً، متقد الذكاء، واسع الإطلاع يميل إلى المغامرة نصف المحسوبة، لا يخجل مما يخجل منه الناس خاصة ممن كانوا في سنه، كان يتيم الأب، ترعى أمه، شقيقته الصغرى وشقيقه الأصغر – بعد أن تزوجت شقيقته الكبرى – معتمدة على إيراد متواضع يتمثل في ريع فدانين تركهما الأب وتولى عمه زراعتهما .. وكانت الأم تقتطع أربعة أو خمسة جنيهات شهريا لترسلها إلى إبنها في القاهرة، ليصرف منها على المسكن والمأكل والملبس، ومصروفات الدراسة، والمواصلات وما إليها .. وقد تضيف إليها بعض الزاد يصحبه معه عند عودته من القرية حين يزورها كل عدة شهور، وغالباً ما يضم كمية من الخبز والجبن القديمة، وفطيرة أو اثنتين من فطائر المشلتت، إضافة إلى دجاجتين محمرتين، وقد تحوي بعض الأرز .. والبطاطس.

كان اصطحاب "الزاد والزواد" عادة ريفية يزود بها الأهل أبناءهم عند عودتهم إلى المدينة التي يقطنونها للعمل أو العلم، تخفف عنهم قسوة النفقة على الطعام، وتوفر لهم وقت الإعداد.

هكذا كان يفعل أهل حنفي وحسني .. وهكذا كان غيرهم من أهالي الوافدين الجدد على غرفة الثلاثي يفعلون. وعن الوافدين على الغرفة، فقد أشيع على امتداد القرية أن أبناء الخالة يقيمون في مسكن يتسع للأهل والأحبة، وبالتالي أصبح سلوكاً مألوفاً، أن ينزل الوافد إلى القاهرة على بلدياته في الدقي، فيستقبلونه أيما استقبال، ويتسلمون الزواد الذي يصلهم في الغالب في فترة التحاريق بعد نفاذ كل مواردهم فيقتاتون عليه يومين أو يزيد يبحثون خلالها عن سكن للقادم حديثاً، وغالباً ما يلحقونه على أحد معارفهم لمشاركته في غرفة هنا أو هناك.

تخصص عبد الشافي – إلى حد الإحتراف – في اقتناص المحترفات في معظم الأيام والهاويات في أقلها، كان مثل الصقر شاهين المدرب على الصيد. كانت أنفه تشم رائحتهن عن بعد، وكانت لديه ملكة اختيار العبارات التي تنهي الصفقة في أقل وقت ممكن، وكانت منطقة سكنهم تعج بهذا الصنف من بائعات الهوى، وكان بوسع كل من رفيقيه أن يقوم بالدور الذي يقوم به عبد الشافي بفارق أكيد في الكفاءة، لكن المشكلة كانت دائما في تدبير التكلفة التي تفوق إمكانيات الثلاثة، أما عبد الشافي فكان يمتلك من أدوات الإغراء المتمثلة في عروض مجانية بلجوء الفريسة إلى ملاذهم في أي ليلة يمضي بها الوقت قبل أن توفق إلى صفقة تضمن لها المبيت، ويتأخر الوقت عليها وهي بعد تتسكع في الطرقات، حيث تبدأ ملاحقات شرطة الآداب، أو مضايقات سكارى

آخر الليل الذين لا نفع يرجى منهم .. توطدت علاقة عبد الشافي بأغلب بغايا هذه المنطقة، عرف أسماءهن الحقيقية، وتعرف على ما يستهوي كل منهن، كما سمع منهن ما يوجعهن، وأصبح خبيراً في فرز الروايات المفبركة التي ترويها كل منهن استدرارا للعطف ومضاعفة للعطاء، من الأوجاع الحقيقية التي تبديهن ثقة فيمن تقصصن عليه، وتوداً، وأملا في إيجاد علاقة شخصية وإنسانية مكملة للعلاقة الحميمة.

كما تخصص عبد الشافي في المساومة، وخفض الفاتورة إلى رقم الصفر أو أقرب رقم منه وهي مهمة صعبة للغاية، إن لم تكن مستحيلة خاصة في التعامل مع هذه النوعية من النساء اللائي يبعن أنفسهن لقاء المال، ولا يتخيل بيع أنفسهن مجاناً إلا لإنسان ذو مهارة خاصة وحنكة لا يمتلكها صاحب خبرة لسنوات تفوق سنوات عمره.

وإذا جاز أن تستلطف محترفة شخصاً ما، وأن تميل إليه حتى تهبه نفسها دون مقابل، فكيف يقنعها بعدم تقاضي مقابل لتسليمها نفسها لزملائه ومن يدعوهم إليها مثل ممدوح الذي تعرف عليه في الكلية، وتوطدت علاقتهما خلال أيام، وربما ضاعف تسارع توطد العلاقة بينهما، تبادل المنفعة، فممدوح يسكن مع أسرته على مسيرة خطوات من مسكن عبد الشافي؛ الذي يتردد عليه في مسكنه فيلقي كرماً: وجبة ساخنة متكاملة ومشروبات مثلجة وساخنة، كما يخطر عبد الشافي ممدوح للإنتقال إلى حجرته عاجلاً عند الإتفاق مع إحداهن على الحضور، وكان يعامله كضيف شرف .. كان ممدوح يتعفف من تعدد العلاقات ولا يقبل إقامة علاقة في وجود طرف ثالث في مدى الرؤية أو السمع، لذلك كان عبد الشافي يخلي المكان تماما حتى ينتهي ممدوح ويبرح

المكان فيمر عليه في المقهى القريب الذي ينتظره فيه ليصعد عبد الشافي وحده أو مع آخرين حيث ينالون حظهم من المنتظرة بالحجرة.

حاول ممدوح مرة أن يسهم في التمويل، فنهره عبد الشافي بشدة معتبراً ذلك إهانة شخصية له، فامتنع بعد ذلك عن العرض وحاول تعويض هذه المكرمة في مجالات كثيرة، وصلت إلى إقراض عبد الشافي بعض الملابس ثم التصميم على عدم استردادها.

توسع نشاط عبد الشافي، فقد ضمت القائمة – بالإضافة إليه – ابني خالته المقيمان معه، وممدوح، ومن يتصادف وجوده من الوافدين من القرية، إضافة إلى مدعوين من زملاء الكلية، كانت الظروف تفرض على عبد الشافي تواجد أحدهم لمرة أو أكثر، وبذلك ساد الشيوع، وأصبح الصعود والنزول للشباب والنساء على حد سواء ملفتا، وغدا عبد الشافي غير عابئ بالتمويه أو التعمية، بل أصبح اصطحابه للنساء على مدى ساعات الليل والنهار على السواء, يتأبطن ذراعه علانية، وكان يكرر أنه يجري عملية تطعيم للست هناء حتي تتعود على رؤية هذه اللقطات دون أن يثير لديها ما يدفع إلى الإحتجاج أو محاولة المنع، واستشهد برؤيتها له لأكثر من مرة وهو يصعد أو ينزل ومعه امرأة فلم تتحدث إليه.

اقتنع الجميع بمنطقه، وسكنوا إليه، واستمرأوا هذا السلوك الذي اعتبروا أنفسهم قد فرضوه على الست هناء؛ التي رأت ذات صباح، خمسة شباب غرباء ينزلون السلم تبعهم عبد الشافي بعد قليل وبصحبته امرأة، فاستوقفته وأبلغته أنها في انتظاره خلال نصف ساعة.

صرف عبد الشافي المرأة ثم عاد، وقبل أن يسأل الست هناء، أجابته:

- أنا مش نايمة على ودانى، أنا بقالي شهرين شايفة وسامعة، وساكتة بقول يمكن تخلوا عندكم شوية م الأحمر، لكن كل ماده كنتم بتزودوها، لما خليتوها خل.

حاول عبد الشافي أن يبرر أو يعتذر بمقاطعتها، لكنها لم تمكنه من ذلك واستطردت في حسم:

- انتو لازم تخلو الأوضة حالاً، ومن غير كلام.

وقال عبد الشافي محاولاً كسب الوقت:

- حاضر .. اللي شايفاه يا ست الستات .. إدينا بس لأول الشهر ..

وقاطعته محتدة:

- إنت حا تلعب علي زى ما بتلاعب النسوان اللي بتجيبهم م الشارع .. دانا اطبقك واحطك في جيبي .. لو ما سلمتونيش الأوضة خلال ساعة أنا حاجيبلكم البوليس يمشيكم.

حاول عبد الشافي .. وقطعت عليه كل فرصة، وأكدت تصميمها على فضيحتهم وطردهم في نفس اليوم .. فسلم لها بما تريد، واستسمحها في الإنتظار ساعتين حتى يصل رفاقه في الغرفة لمصاحبته في نقل الأثاث .. ووافقت .. حضر حسني ثم تلاه حنفي فأبلغهم بما حدث، وبتلقائية وعفوية شديدتين سلموا بتنفيذ ما أمرت به الست هناء.

نزل حسني فأحضر عربة كارو، بينما فكك حنفي وعبد الشافي الأثاث الذي لم يكن سوى سرير عليه مُلَّله ومرتبة وملاءة ولحاف، ودولاب ملابس يكاد يخلو من الملابس و"بقجة" فيها نفايات يسمونها "ملابس وغيارات". في

دقائق كان الأثاث في الشارع .. وفي دقائق أخرى كان محملاً على الكارو وركب الثلاثة إلى جوار "العربجي" وقالوا له في بساطة أنكى من البلاهة.

- ياللا ..

وبطبيعة الحال تساءل الرجل:

- يا للا فين؟! ...

انفجر الثلاثة ضاحكين، وتزايد الضحك واستمر حتى شاركهم العربجي فيه دون أن يعرف له سببًا، وحين انتهوا من ذلك قالوا له:

- حاندور على سكن.
- فين؟
- مطرح ما يحب الحصان.
- والأجرة؟
- حانلف، ولما نجوع حاناكل سوا، وحا نجيب برسيم للحصان .. ولما نلاقى سكن حانديلك اللى تطلبة .

(٢)

اندهش العربجي وتعجب من هؤلاء الزبائن الذين يخلون مسكنًا قبل أن يجدوا آخر، وقرر خوض التجربة معهم ليشهد نهايتها، هل يجدون ضالتهم ويعثرون على سكن يستوعب حمولة عربته؟ وما هو البديل إذا لم يجدوا؟!

بدأ التحرك دون توجيه للحصان تاركين له حرية الحركة راضين بقيادته للمهمة .. تبسطوا مع العربجي وتسامروا، وتبادلوا لفافات التبغ، والتعريف بأنفسهم وأعجبوا بكفاح العربجي الذي مات أبوه ولم يترك له سوى العربة والحصان وثلاثة أفواه؛ أمه وشقيقتيه، فورث عمل أبيه للصرف على "الحريم"

وقصوا له حكايتهم مع الغربة والتعليم. إرتاح كل طرف للآخر، وازدادت قناعة العربجي بمرافقتهم حتى النهاية ورزقه، ورزق الحصان على الله الذي لا ينسى أحدًا.

مروا خلال سيرهم بشارع النيل بمحل ساندويتشات جديد فكلف حنفي شقيقه حسني بأن ينظر أيها أزكي طعامًا ليأتهم برزق منه على ألا يتجاوز حدًا في الصرف .. أكلوا ودخنوا .. ورأوا بناءً يكتمل على الناصية المقابلة قيل إنه مشروع مستشفى لرجال الشرطة فدلفوا إلى الشارع الخلفي لهذا البناء اقتداءً بمسلك ريا وسكينة في مجاورة قسم الشرطة للتمويه على أعمالهم .. وما أن ساروا خطوات حتى رأوا عمارة جميلة في شارع وارف الظلال تلتقي فيه فروع الأشجار على الجانبين فتشكل سقفًا أخضرًا يظلله، ولا تنفذ منه سوى أشعة متناثرة متباعدة من ضوء الشمس، وعلى بابها يجلس بواب صعيدي في هيأته صرامة وجدية، لكنهم – بخبرتهم في التعامل مع نماذج بشرية عديدة – توقعوا بساطة وطيبة، بل وسذاجة تسترها تلك الملامح وذلك الشارب الكثيف. طلبوا من العربجي التوقف على مسافة منه، وهبطوا من العربة قبل أن يلمحهم، وتقدموا مترجلين، يقودهم حنفي مرتديًا بدلته الوحيدة ذات الصديري وربطة العنق، وأقفل زرار الجاكته ووضع يده اليسرى في جيب البنطلون، وباغت البواب بسؤال مباشر وصارم:

- هي الشقة الفاضية اللي هنا في الدور الكام؟

أجاب البواب بسرعة بينما انتفض واقفًا:

- في الدور الأرضي يا بيه،

ثم استطرد مستدركًا:

بس مش عارف إذا كان صاحب العمارة أجرها ولا لسه.

وسادت حنفي حالة من الرضا عن نفسه إزاء نجاح أسلوبه البوليسي المباغت وصدق حدسه، فقال للبواب:

- يا راجل هي لحقت تتأجر من امبارح للنهاردة .. مش امبارح ما كانتش اتأجرت؟

ورد البواب:

- أيوه يا بيه، لكن صاحب العمارة هو اللي ف إيده التصرف وربنا العالم باللي حصل ..

واستكمل حنفي حديثه بنفس الجدية التي لا تعطي فرصة للتفكير أو التردد:

- طيب اديني نمرة تليفون صاحب العمارة.

وأخرج البواب من حافظة نقوده قصاصة عليها رقم تليفون وأمامه اسم صاحبه قدمها لحنفي متسائلاً:

- مش برضه الإسم اللي مكتوب: الحاج عبد الراضي يا بيه؟

قرأها حنفي وأومأ برأسه تأكيدًا لصحة المعلومة ثم أخرج مفكرة صغيرة من جيب الجاكتة نقل فيها رقم التليفون واسم الحاج عبد الراضي، ثم تركوا البواب وعادوا إلى العربجي حيث طلبوا منه الإنتظار واستغلال الوقت في إطعام الحصان وراحته، وبقى معه عبد الشافي بينما انتقل الشقيقان إلى كشك السجائر والمرطبات القريب لاستعمال التليفون العمومي منه، حيث اتصلوا بالحاج عبد الراضي للإتفاق على استئجار الشقة، وبعد مساومات سريعة تم الإتفاق على دفع خمسة جنيهات إيجار شهر ومثلها على قبيل التأمين على أن

يحتسب الشهر من بداية الشهر الذي مضت منه خمسة أيام، ووافقوا، فهم لم يدفعوا إيجارًا عن هذه الأيام للست هناء واتفقوا على الإنتقال إلى الحاج عبد الراضي في مسكنه بإمبابه للتعاقد.

عاد الشقيقان لإبلاغ عبد الشافي والعربجي بنجاح المهمة، ومواجهة الأصعب منها، وهو تجميع الجنيهات العشرة للتعاقد.

قال حنفي:

- الحمد لله اننا في أوائل الشهر وأنا لسه معايا سبعة جنيه، انتو معاكم كام؟

قال حسني:

- معايا اثنين جنيه وربع .. يعني اثنين جنيه عشان يفضل معايا حاجة.

وقال عبد الشافي:

- وانا معايا ستين قرش، يعني خمسين قرش عشان يفضل معايا عشرة صاغ.

أحبط حنفي وقال:

- كده يبقوا تسعة جنيه ونص .. يعني حانقف على نص جنيه؟ دي تبقي مصيبة.

ضحك العربجي وعلق قائلا:

- يعني سألتم بعضكم، وما سألتونيش. إنتوا مش حاطَّيني في الحسبة ولا إيه؟

أدي خمسين قرش مني..

وضحكوا جميعاً .. وعلق عبد الشافي.

- إذا كان عليك إحنا موافقين تسكن معانا .. بس الحصان حانعمل فيه إيه؟

وتساءل حنفي قائلا:

- مش ممدوح ساكن قريب من هنا؟

قال عبد الشافي:

- طبعاً دا ممكن ننده عليه من هنا، دا ساكن في شارع الدري .. فطلب منه حنفي أن يتجه إليه لاقتراض أي مبلغ ممكن لتغطية المسائل المكملة.

جمعوا ما معهم وسلموه لحنفي حيث اتجه إلى صاحب العمارة للتعاقد، بينما توجه عبد الشافي إلى ممدوح وعاد بعد دقائق وقد حصل منه على مبلغ غير متوقع؛ ثلاثة جنيهات كاملة، أعطى منها جنيها للعربجي؛ رداً لما دفعه والنصف الآخر مقابل خدمة النقل، وتردد العربجي في قبوله .. ثم قبله بعد إلحاح.

ساعة أو يزيد عليها قليلاً حتى حضر حنفي وفي جيبه عقد الشقة وإمارة للبواب لكي يفتحها ويسلمها لهم .. وعندما فتحها ودخلوها وعاينوها؛ شقة ثلاثة غرف ومطبخ وحمام وصالة فسيحة، وأهم من ذلك بلكونة متسعة تظللها شجرة تعطي شعوراً صادقاً بالجلوس في حديقة وارفة الظلال، وأهم من ذلك تسترها تماماً عن أعين الناظرين. سادتهم فرحة عارمة، غير مصدقين أن هذه الشقة لهم، وأن البواب ينادي كل منهم: يابيه!

وأخرج عبد الشافي جنيها كاملاً أعطاه للبواب قائلا:

- مش خسارة فيك يا..

ثم سأله:

- هو صحيح انت اسمك إيه؟
- تناول البواب الجنيه بفرحة بادية وامتنان واضح، وأجابه:
- خدامك خلف يابيه.

ثم استدعوا العربة وعليها الأثاث الحقير حيث حوله العربجي والبواب إلى داخل الشقة، وغمز لهم العربجي بطرف عينه متسائلا:

- أروح بقي أجيب لكم باقي العفش يابيه؟

وأجابه عبد الشافي بلهجة أرستقراطية تكمل الرسم على البواب:

- لأ..لأ، إحنا حانغير العفش، ونبقى نجيب العفش الجديد مرة واحدة .. خرج البواب، وانصرف العربجي .. وأغلق الثلاثة باب شقتهم عليهم، ثم تعانقوا، وهتفوا في لحظة واحدة:
- أخيرا؟!

ثم انمحت الابتسامة من وجه حنفي، وقال:

- راحت السكرة، وجاءت الفكرة

فانزعج رفيقاه وتساءلا في قلق:

- إيه؟ خير فيه إيه؟

أجابهم ..

- أنا في جيبي شلن أول عن آخر من هنا لآخر الشهر، يعني ٢٥ يوم بخمسين مليم يعني أصرف في اليوم نكلة .. وانتم؟

قال حسني:

- أنا معايا رُبع جنيه زى ما قلت لكم.

وقال عبد الشافي:

- وأنا جبت ثلاثة جنيه من ممدوح وكان معايا عشرة صاغ ..

اديت العربجي جنيه والبواب جنيه، وفاضل معايا جنيه وبريزة.

بحسبة بسيطة اعتمدوا ميزانية الشقة؛ فالمتاح لهم جميعاً مائة وأربعون قرشاً عليهم أن يتصرفوا في حدودها حتى يحل الشهر الجديد أو يرسل الله لهم مدداً من عنده .. سادتهم لحظة وجوم، ثم تساءل حسني:

- ايه يا اخوانا هي دي أول مرة؟ ما احنا علطول كده، وربنا بيفرجها.

وقال عبد الشافي:

- بس احنا اتطورنا للأحسن بكثير .. إحنا دلوقت قاعدين في شقه ..

وصحح حنفي:

- لأ خلي بالك إن الشقة لها متطلبات، يعني الأوضة كانت مداريانا.

اتفقوا في النهاية على ألا يدعوا شيئا يفسد عليهم فرحتهم بالشقة الجديدة وقرروا الاحتفال بافتتاحها فكلفوا حسني بشراء رطلين من الكباب وثلاثة زجاجات من البيرة وعلبة سجائر (ونجز)، واعتمدوا صرف ثمانين قرشاً، وكلفوا عبد الشافي بالخروج في مهمة قنص لأول أنثي يلقاها "عشان نِزفَّر الشقة"..

وصاح حنفي:

اليوم خمر وغدا أمر.

(٣)

على أول ناصية صادفته، لمح عبد الشافي سمية؛ امرأة في نهاية العشرينات مكتملة الأنوثة، ممتلئة قليلاً وذات صدر ناهد، ليست جميلة ولكن وجهها مقبول وقد يكون مريحاً خال من آي جرح أو ندبة على عكس معظم بنات مهنتها، تكرر ترددها على غرفة المجموعة حتى غدت صاحبة بيت معها مفتاح للغرفة لتتمكن من دخولها حين تلقي بها مقاديرها في غير وجود أحد من الثلاثي، وكثيرًا ما كانت عثرة الحظ، أو أنها كانت تتدلل في أول الليل،

فيخونها الوقت ويقترب الصباح وتخف الحركة وينعدم الطلب، فتطلب ملجأ يؤويها حتى الصباح فلا تجد في منطقة نشاطها ملجأ أأمن عليها من غرفة الثلاثي، وكثيراً، ما قررت في موعد مبكر أن تعتمد لنفسها ليلة حرة فتمضي إلى أقرب محل بقالة تشتري منه ما تيسر من الجبن والحلاوة والبسطرمة والبيض وباكو من الزبد، ثم تمر على المخبز الأفرنجي لتشتري عشرة أرغفة، تحملها وتتجه إلى الغرفة الأثيرة فتعد عشاء للمجموعة وتتسامر معهم ويتبادلون الحكايات، وقد يعتبرونها ضيفة لا تمس، وقد تختص واحدا منهم بما يروي ظمأه، وربما ظمأها .. نعم لقد كانت تمارس الجنس مرة أو مرات في كل يوم كمهنة تدر عليها دخلاً تعيش منه، دون أن تشعر بمتعة، بل على العكس فقد كانت تتألم أحياناً، ويسودها القرف والغثيان مرات أخرى، هذا ما كانت تقصه عليهم في اعترافات صريحة عن حياتها ومعاناتها، لكنها أحياناً تحس رغبة إنسانية حقيقية وخاصة مع إنسان تلمس منه عطفاً حقيقياً، أو معاملة إنسانية، بعد أن ملت معاملتها كسلعة يتملكها من يدفع الثمن.

ألفت سمية المجموعة، وألفوها حتى عرفوا اسمها الحقيقي وهو عنايات أما سمية فهو الإسم الحركي المرتبط بالحرفة، وعرفوا بلدها وإسم زوجها وهذا شيء نادر الحدوث .. وكان عبد الشافي يلتقيها بتكرار الصدف،. وكانت تصحبه كلما طلبها إلا مرات قليلة، كانت تعتذر له وتحدد له موعداً لاحقاً للحضور قائلة:

- معلش يا عبده .. أنا انهارده مزنوقة في فلوس حا قلَّب عيشي، ومين عارف يمكن تقفل معايا، واجيلكم آخر الليل.

المهم أن سمية صحبته، واعتقدت أنه يتجه بها إلى شقة أحد أصدقائه لأن طريقه خالف طريق الغرفة الذي حفظته عن ظهر قلب، لكنها فوجئت حين أخرج المفتاح من جيبه وفتح الباب ودخل فإذا حنفي وحسني يصيحان:

- سمية ..

وصاحت هي:

- حنفي .. حسني.. إيه اللي جابكم هنا؟

وكانت سعادتها مكتملة حين أبلغاها أن هذه شقتهم الجديدة .. فتشاركوا في أكل الكباب، وشرب البيرة، والتدخين حتى آخر سيجارة من علبتهم وسيجارتين من علبتها وتناوبوا المتعة في الليلة الإفتتاحية للشقة الجديدة.

مكنت الشقة الجديدة سكانها من التوسع في تبادل المنافع باستقبال مزيد من القادمين الجدد ومعهم الزاد والنقدية التي تمكنهم من تخطي فترات الجفاف، فقد كانوا ينفقون بطريقة بوهيمية أهم ملامحها:

في اليوم الأول من كل شهر يتقاضى حنفي مرتبه فيتحفظ منه على ثلاثة جنيهات لا يفرط فيها تحت أي ظرف للمواصلات ومصروف المكتب، بينما يودع الجنيهات العشرة تحت تصرف المجموعة التي تعبث بها، وتنفقها عن آخرها خلال ثلاثة أيام في بذخ غير متصور. أطيب الطعام .. البيرة .. السجائر .. الجنس.

يتلوها يوم أو يومان من القحط الشديد الذي يصل إلى الإفلاس الكامل بحيث يتوجه حسني وعبد الشافي إلى الجامعة سيراً على الأقدام ذهاباً وإياباً وجيبيهما خاويان، ليس في أيهما مليم واحد، وقد يمضي يوم أو يومان دون أن يدخل جوفهما أي كم من أي نوع من الطعام أو الشراب سوي الماء.

ثم تصل حوالة بأربعة جنيهات أو خمسة باسم عبد الشافي، فترتوي الأرض الجافة وتبدو مظاهر الفيضان، وتدب الحياة العارمة بالإنفاق في بذخ إلى أن تنضب في يوم أو يومين، قد يرسل القدر إليهم بعدها وافدا معه خير فيفيد ويستفيد؛ يقيم معهم ويصيبه نصيب من المتع التي تتوافر في أيام تواجده معهم، إلى أن يرحل.

وفي منتصف الشهر، تصل حوالة مشابهة باسم حسني، ويكون بشأنها ما كان من أمر غيرها .. وهكذا دورات من الرخاء، والحرمان، لكن الإبتسامة والسعادة لم تغادرهم في أي مرحلة إلا حين كان المرض يشتد على حنفي، وتأتي نتائج التحاليل بنسب عاليه من البولينا .. وحتى في هذه الفترات كان حنفي يتغلب علي الألم بالتعليقات اللاذعة التي تحول المشهد الحزين إلى صورة كاريكاتورية باسمة.

(٤)

حين استقر المقام للمجموعة في شقة في ذلك الحي المرموق، استرجع حنفي الذكريات حيث تذكر صديقه حمدي واسترجع تحذيره له عند توصيله إياه إلى محطة القطار مسافراَ إلى أسوان لاستلام عمله:

- حاتبقي محاسب في شركة محترمة وحاتنسي أيام الضنك اللي عشناها مع بعض.

واستنكر حمدي منه ذلك ورد في صرامة:

- اخص عليك يا حنفي .. هي دي أيام تتنسي؟

وراجعه حنفي مداعبا:

- هي من ناحية تتنسي يكون أريح لو تتنسي بس مانقدرش. دي معلمة فينا.

وضحكا وأكدا على التواصل مهما كانت الظروف، ومضت شهور لم يتلق حنفي خلالها خطاباً من صديقه، والآن وقد تغير عنوانه، فقد يتصادف أن يرسل الصديق خطاباً على عنوان بيت الست هناء فلا يصل إليه، فأمسك بقلم وورق. وكتب خطاباً في هيئة قصيدة بلا توجيه ولا تحية. هي قصيدة أودعها في ظرف وضع عليه طابعا وأرسله إلى صديقه بشركة كيما – أسوان بعد أن سجل عنوانه هو علي ظاهر الخطاب:

إن تنس أنت فإني لست بالناسِ أيام فقر وإقلال وإفلاس
قد كنت تقرضني المليم معتذرا ويصرخ السوس جوعا بين أضراسي
أيام تقفشني ظهرا..وقد نثرت أقراص طعمية عجفي بقرطاس
وبعض حبات من الأرز تحسبها من شدة الشوق حبات من الماس
فتميل نحوي ولكن بعد نحنحة وحك إست وقبلات علي الراس
وتنسف الأكل نسفا ثم تتركني وقد سلبت ملاليمي وإفلاسي
أيام أخرج سيجارا لأشعله فتنحني لي ترجو بضع أنفاس
وبين رجلي ألقيه..فتأخذه وأنت تضحك ملء الشدق يا قاسي
إن تنس أنت فإني لست بالناسي ليالي الأنس والأفراح والكاس
أيام ذقنا من الدنيا حلاوتها وأنت أدري بما دقناه..أم ناس؟
ليت الليالي التي مرت تعاودنا فبين طياتها ذكري لإيناس
كأن أعمارنا والليل ينهبها إثر النهار سباقا بين أفراس

ثلاثة أيام وفوجئ حنفي بحضور صديقه حمدي الذي عانقه باكياً، واعتذر له بسبب انشغاله في أعمال وظيفته الجديدة .. وعملية التسكين والإستقرار، وسأله عن أحواله وصحته، ومدى ارتياحه للرفقاء الجدد، فأبلغه

أنهما أخوه وابن خالته .. قضيا الليل حتى الصباح في حديث وسمر أسبغ على كليهما سعادة ورضا.

(٥)

أما عبد الشافي فقد شغل نفسه على مدى ثلاثة أيام في عمل لائحة نظام للشقة، التي أسماها: شقة الأحرار، إقتباسا لتنظيم الضباط الأحرار الذي نجح قبلها بعدة سنوات في القيام بثورة أطاح فيها بنظام الحكم في مصر، رغم عدم وجود أي ارتباط بين أحرار الضباط، وأحرار الشقة؛ فشتان ما بين مفهوم الحرية في فكر الطرفين، الأول ينادي بتحرير وطن، بينما الثاني ينادي بتحرير المكبوتين من قيود المجتمع إرضاء لرغباتهم، وطلب من رفيقيه اقتراح بنود من هذه اللائحة حتى ينتهي منها في أقرب فرصة .. وبعد معاناة سطر هذه اللائحة على ورقة انتزعها من أحد الكشاكيل وثبتها بدبوس مكتب على باب الشقة من الداخل، وكأنما أراد لكل زائر قراءتها قبل الخروج فإذا كانت نيته العودة لزيارات قادمة فعليه إعلان ولائه والتزامه بكل بند منها .. وكان ما توصل إليه وسجله على الورقة مايلي:

في منتصف السطر أعلى الورقة كتب: مبادئ شقة الأحرار، وكأنه إعلان ولسون لحقوق الإنسان، أو المبادئ الدستورية في "ماجنا كارتا"، ثم أتبع العنوان بديباجة قال فيها:

شقة الأحرار، ترحب بكل "إنسان" يرغب في زيارتها منفرداً، أو برفقة آخر أو أخرى أو أخرين أو أخريات دون تفرقة نتيجة للون أو الجنس أو الجنسية أو النوع أو السن أو الوظيفة، أو الوضع الاجتماعي، وله أن يمارس فيها كل الحريات المطلقة من حرية الرأي والتعبير إلى حرية التصرف، والتمتع

بكل إمكانيات الشقة بدءً بما قد يتواجد فيها من طعام وشراب إلى فراش إلى تبادل الملابس على أن يلتزم بالتعليمات التالية:

- أترك شخصيتك .. وكبرياءك وأخلاقك على الباب وخذها وأنت خارج.
- لا تعترض على ممارسة غيرك لنفس الحريات المسموحة لك بالشقة.
- من حق غيرك مشاركتك في كل ما تستحوذ عليه أو تصحبه بالشقة دون حاجة لاستئذانك المسبق.
- الطالب والأستاذ والضابط وحارس العقار، والعامل ورجل الأعمال متساوون في كل شيء، ويحظر استخدام المقدمات النفاقية للأسماء مثل: بيه .. أستاذ .. مهندس .. الخ والنداء المتبادل بالأسماء المجردة.

ويمكن لرواد شقة الأحرار اقتراح مبادئ مكملة لإضافتها للنظام. ثم ذيلها بتوقيع: "عبد الشافي زعيم الأحرار".

وبداية لتطبيق هذه المبادئ، اتفق الثلاثي على إمكانية إقراض من يرغب نسخة من مفاتيح الشقة، على أن يتركها بداخل الشقة بعد انتهاء مهمته وقبل مغادرة الشقة.

وقد توسع حسني في إقراض المفتاح لكثير من الأصدقاء والزملاء وأقارب الزملاء وأصدقائهم، ونظراً لعدم رد بعضهم للمفتاح وعدم إمكانية تتبعهم لعدم وجود علاقة مباشرة مع معظمهم، فقد اضطر إلى استخراج نسخ جديدة من المفتاح على نسخة من مفتاحي حنفي أو عبد الشافي .. وحدث ذات مساء، أن اصطحب عبد الشافي صديقة له طال الحديث معها خلال الطريق إلى الشقة في أمر لم يكن يرغب في إشراك أحد رفيقيه أو ممن يتصادف وجودهم في الشقة فيه، وحيث اقتربت الشقة ولم ينته الحديث، فقد

اضطر إلى الدوران حول مربع سكني أحد أضلاعه شارع النيل ثلاث مرات في اتجاه عقارب الساعة. ورغم انهماكه في النقاش إلا أنه لاحظ دوران ثنائي آخر حول نفس المربع وفي عكس اتجاههما .. وفي المرة الثالثة قطع الحديث فجأة واستأذن من صديقته، وانقض بسرعة في اتجاه الرجل الذي تأبطت المرأة الأخري ذراعه، وكان رجلا في ضعف سنه تقريباً واقترب بشفتيه من أذن الرجل وسأله في وضوح، وبصوت منخفض.

- إنت مزنوق في شقة؟!

عقدت المفاجأة لسان الرجل ولم يدر بم يجيب، فهو لا يعرف من يعرض عليه الشقة، هو في أمس الحاجة لها، لكنه لا يعرف هل هذا الشاب من مباحث الآداب؟ أم يعرف المرأة أو زوجها؟ أو .. أو .. ولاحظ عبد الشافي ارتباكه المتوقع، فاستأنف الحديث الموجه إليه:

- إنت يمكن مستغرب .. ومش متوقع العرض لأننا مانعرفش بعض، لكن يا ما اتزنقنا في مواقف زى دي، وقعدنا نلف للصبح في انتظار الفرج .. وأخيراً الزمن جاد علينا بشقة بنبرطع فيها زى ما احنا عايزين، عشان كده اتفقنا نفك زنقة أي مزنوق.

ثم قدم للرجل – قبل أن ينطق – مفتاح الشقة، قائلا:

- العنوان ١٦ شارع على أبو الفدا .. الدور الأرضي .. أول شقة على اليمين في المدخل على طول. بس استأذنك تسيب باب الشقة موارب، علشان إحنا حانيجي بعد شوية .. وما تنزعجش لو لقيت حد في الشقة .. ادخل الأوضة اللي علي يمينك، واقفل بالترباس من جوه ومالكش دعوة بالباقي.

ولم يجد الرجل فرصة لمجرد التفكير أو القبول أو الرفض، فأمسك بالمفتاح ومضي إلى حيث وصف له عبد الشافي، وسارت الأمور بسلاسة.

في الصباح التالي كانت الفرصة للتعرف على الرجل وعلى المرأة، وانضما معاً إلى أحرار الشقة، وأسهمت المرأة في تقديم خدمات مجانية للأعضاء.

انتقلت المفاتيح من يد ليد فمن يقترض المفتاح يقرضه لآخر بعد تحقيق ما اقترضه من أجله دون الرجوع إلى الأصل، لذا فقد دعا عبد الشافي كل من حنفي وشقيقه حسني لاجتماع عاجل لطرح قضية المفتاح ومناقشة الحلول .. وباعتباره الداعي فقد بدأ بالحديث متسائلاً:

- لماذا اخترعت مفاتيح الأبواب؟

وأجاب حنفي:

- اختصر يا عبده وبلاش مقدمات وأسئلة أجوبتها بديهية، وعلى كل حال، اخترعوا المفاتيح علشان يقفلوا الأبواب.

استمر عبد الشافي في التساؤل:

- ويقفلوها ليه ياحنفي؟

بدت علامات الضيق والغضب والاستخفاف تبدو على ملامح حنفي وهو يجيب بصوت أعلى وأكثر حدة:

- يقفلوا الأبواب عشان ما حدش يدخل الا اللي معاه المفتاح ياخفيف.

وتدخل حسني مكملا:

- وعشان كمان ما حدش ياخد حاجة من اللي قافلين عليها بالمفتاح.

وصاح عبد الشافي مكتفيا بما قيل:

- حلو، يعني المفاتيح تأمن المكان من دخول اللي معهوش مفتاح، وتحافظ علي الممتلكات اللي داخل المكان..صح؟

وأجاب الاثنان معا في تزامن وبنفاذ صبر:

- آه:

استطرد عبد الشافي:

- وحيث إن عدد اللي معاهم مفاتيح بقى غير قابل للحصر يعني في حالة شيوع زى ما بتقولوا عندكم في كلية الحقوق يا حسني، يبقي المفتاح فقد قيمته في منع حد من الدخول، وحيث إن مفيش ممتلكات داخل الشقة لها قيمة تخلي حد يطمع في دخول الشقة عشان ياخدها يبقي المبررين لوجود المفتاح غير موجودين في حالتنا. عشان كده أنا باقترح إلغاء المفاتيح وتطبيق نظام الباب المفتوح.

وتساءل حنفي وفي صوته انعكاس لمزيج من الإستغراب والإستنكار:

- يعني انت شايف إن نسيب الباب مفتوح ليل ونهار وفي وجودنا وغير وجودنا؟ ولا أحسن نخلع الباب من أصله ما دام مالوش لزمة؟

وأجاب عبد الشافي مستنكرا:

- لأ طبعا يا أبو الأحناف، إحنا حا نربط فتلة في الكالون ونطلع الفتلة من الشراعة بحيث إن اللي ييجي من بره، يشد الفتلة، يفتح الباب، وفي حالات الضرورة نقفل الباب من الداخل بالترباس.

وتوجه حسني بسؤال يؤكد موافقته مع رغبته في التعرف على دافع عبد الشافي:

- طيب الاقتراح دا يفيد بإيه؟

- يفيد في راحتنا من الإحتفاظ بمفتاح، ومن تطليع نسخة عشان نسلفها لفلان ولا علان وبعدين متابعته عشان ناخدها منه تاني ما دام دا كله مالوش فايدة.

وبعدين يا أحرار، مش دي إضافة شكل الحرية لمضمونها اللي احنا وافقنا علي ممارستها في شقة الأحرار؟ موافقين؟ .. وتابع الحديث مجيباً بنفسه عن سؤاله: موافقين؟ صح؟

ابتسم الشقيقان واقترح حسني الموافقة مع الاحتفاظ بمفتاح واحد "للظروف القهرية زي سفرنا للبلد كلنا في العيد أو أي ظرف مش ف حسابنا".

مضت الحياة بالثلاثي لا يشعرون بكمد في الحياة، رغم ضيق ذات اليد، والفارق الكبير بين الموارد، وبين المصروفات، اللازمة للطعام والشراب، والشرب والتدخين وبنات حواء، لكن أسلوبهم البوهيمي الذي اختاروه سهل عليهم تذليل عقبة المادة – وعلى أهميتها الشديدة – طوعت لهم أنفسهم احتمال الحياة بل والاستمتاع بها، لم يكدرها سوى عرض ينغصها من حين إلى حين مثل اشتداد حالة المرض الذي يعانيه حنفي والذي أنذر بسوء العواقب للإرتفاع المتزايد في نسب التسمم في الدم، وكذلك ظهور نتائج الامتحانات في الجامعة، والتي لم تبشر باحتمالات التخرج يوماً ما، ولو بعد طول الأمد.

لكن قدرة حنفي على الاحتمال والتعايش مع المرض، وفلسفة الثلاثي ورؤيتهم لنتائج الامتحانات كانت تمرر أعقد الحالات مع البسمة، فالحياة بالنسبة لحنفي مشوار، طال أو قصر ينبغي أن يحياه الإنسان قبل أن يفاجئه بالانتهاء، كان يشبه الدنيا بكوب من الشاي سنصل فيها حتماً إلى "التفل"

فلتستمتع بما في الكوب قبل أن تفاجئك نهايته، أما الجامعة فبدلا من التباكي على رسوب كل منهم في ثلاثة أو أربعة مواد، كانوا يتفاخرون ويحتفلون بنجاح كل منهم في سبعة أو ثمانية مواد أخرى، وكان عبد الشافي يصيح:

- والله العظيم إحنا عباقرة، هو احنا ذاكرنا، ولا اشترينا كتب من أصله؟ هو أحنا حضرنا محاضرتين ولا ثلاثة في أي مادة مع إننا كنا بنروح الجامعة كل يوم؟

والنبي الأساتذة دول هبل .. دول بيسقطوا طلبة منتظمين في الحضور، والمذاكرة وواخدين العملية جد الجد ياعيني!

توسعت دائرة الأحرار، أو المتحررين، لم تكن لهم أي علاقة بالسياسة أو حتى بالمبادئ، وضمت من فئات المجتمع أشخاصا لم يتخيل أصحاب شقة الأحرار أنفسهم أن ينضموا إليهم أو أن تكون يوماً ما ذات نفع عميم بالنسبة لهم مثلما حدث يوم تضرر بعض السكان المحيطين من ممارساتهم شبه العلنية، فأبلغوا شرطة الآداب التي خططت للقبض على الموجودين بالشقة في حالة تلبس، وبالفعل، وفي لحظة مناسبة للشرطة تقدمت القوة إلى باب الشقة، وطرقت الباب بطرقاتها المميزة المتتالية، وبعد التكرار فتح الباب، وهمَّ ضابط الآداب وخلفه المخبرون بالإقتحام، لكنهم فوجئوا بشخص من فتح الباب فلم يكن سوى معاون مباحث الحي .. صعق الضابط ولم يسعفه الموقف سوى بإلقاء التحية:

- مساء الخير يا فندم – آسف .. واضح إن فيه حاجة غلط.

ومع اعتياد الثلاثي لنوع من الحياة يسمح لهم بالعيش كملوك لأيام، ومثل حياة الكلاب الضالة لأسابيع، لكنهم كانوا راضين، بهذه الحياة؛ رشفوا منها

الصور البهيجة والسعيدة، وبصقوا منها الحقائق المؤلمة. حين اتفقوا على الحريات المتاحة لهم، كان منها تبادل الملابس دون إذن أو اتفاق، كان لكل منهم أن يرتدي ما يشاء مما يجده في الشقة، ولم يكن ذلك – مع ذلك – يتيح لأحدهم دائرة واسعة للإختيار فلم يكن أحدهم يمتلك أكثر من "طقم" واحد من الملابس، بنطلون وقميص، حذاء وجورب، وبلوفر للشتاء. باستثناء بدلة حنفي الوحيدة والمحظور الإقتراب منها احترامًا لارتباطها بالوظيفة.

في بداية أحد الشهور تلقي حنفي راتبه، وقبل أن يعود إلى الشقة، سمح لنفسه بالتسوق واستثمار السيولة المتوفرة في اقتناء شيء ما قبل أن يتبخر المرتب، ولفت نظره جورب مستورد متميز، ورغم أن سعره وصل إلى خمسة وعشرين قرشا كاملة، فقد قرر اقتناءه حيث عاد به إلى الشقة، متفاخراً ومحذراً:

- الشراب ده مستثني من القواعد لغاية ما البسه ثلاث مرات ..

إوعوا يا ولآد الكلب حد يوزه عقله إنه يلبسه قبل خمستاشر يوم.

ثم تغيرت لهجته وكستها نبرة عاطفية حزينة:

- وكده كده .. بكرة أموت وتورثوه .. أنا حاسس إن اللي باقي مش كثير.

لم يشأ الثنائي قلب الموقف إلى مالم يعتادوه من جدية فصاح عبد الشافي:

- موت يا حمار على ما نعمل إعلام الوراثة، ويدخل معانا فيه ناس م البلد..

في الصباح التالي، كان حسني على موعد للقاء "عاطفي" مع إحدى زميلاته بالكلية تطلب أن يبدو مظهره طيباً، فقام بكي بنطلونه وتلميع حذائه، وقرر اقتناص قميص إضافة إلى الجورب الجديد الذي أضافه حنفي إلى مقتنياتهم.

استلزمت الخطة أن يصحو حسني بعد الفجر بقليل، فاغتسل وارتدى ملابسه؛ البنطلون الذي تم كيه، وقميص ممدوح، وبحث عن جورب حنفي في كل مكان بالشقة فلم يجده، فتش داخل الأحذية – وليست بكثيرة العدد – ولم يجده. فتش في الدولاب الخالي من تنوع الملابس فلم يجده، ألقي نظرة على الحوض وفي الأواني القليلة لعل حنفي قرر غسله قبل استعماله ثم .. على حبال نشر الغسيل في البلكونة .. كثف في الأماكن المتصورة وغير المتصورة حتى أعلى السيفون في دورة المياه ولم يجد له أثرًا .. أين يمكن أن يكون حنفي قد خبأه فلم يخرج ولم يخرجا من الشقة منذ رأوا الشراب؟!

استسلم حسني وقرر خلع ملابسه، والعودة إلى السرير لاستكمال ساعات نومه حتى التاسعة – وهو التوقيت المناسب للاستعداد والانتقال إلى مكان اللقاء في العاشرة.

توجه حسني إلى السرير، ورفع الغطاء ليستكمل نومه إلى جوار شقيقه، فرأي ضحكة مكتومة علي تقاطيع وجهه فاندهش، وسأله:

- انت صاحي يا حنفي؟
- ولما لم يرد، أعاد سؤاله بينما وكزه في كتفه مستحثا إياه على الإجابة:
- حنفي .. إنت صاحي؟
- وانفجر حنفي ضاحكاً في قهقهة استفزت حسني لأنه لم ير لها مبرراً، فانتزع الغطاء فجأة عن جسده بالكامل ليدفعه لليقظة ويصيبه بمثل ما أصابه هو من قلق .. ووقع بصره على قدميه، فرأي فيهما الجورب الجديد حيث توقع حنفي تدابير رفيقيه فخبأه في قدميه كأكثر الأماكن أمانا، قبل أن ينام.

انفجر الشقيقان في ضحك هستيري إزداد قوة حين فوجئا بعبد الشافي يشاركهما فيه بنفس القوة، وحين سألاه عن سبب ضحكه وما الذي أيقظه في ذلك الوقت المبكر أجاب:

- أصل انا رتبت أصحا بدري عشان نفس الكلام ولما حسني سبقني، قلت أعمل نايم لغاية ما شوف أيه اللي حايجري.

كانت مثل هذه المواقف تتكرر كل يوم فتطعم حياتهم بروح المرح يستعينون بها على قسوة الحياة.

لكن الزمن لا يمضي بوتيرة واحدة، فقد ظهرت نتيجة الإمتحانات ونجح حنفي فانتقل إلى البكالوريوس مع تخلف في مادتين، بينما انتقل حسني إلى السنة الثانية في كلية الحقوق، أما عبد الشافي فقد رسب للمرة الثانية في السنة الأولى فتم فصله من كلية التجارة والتحق بالسنة الأولى بكلية الحقوق، وحمد الله على أنه أعفى من أداء الإمتحان في المواد المشتركة بين الكليتين مثل القانون والاقتصاد السياسي.

بعث حنفي بخطاب جديد إلى صديقه حمدي في أسوان من أربعة عشرة كلمة في صيغة تلغرافية:

نجحت وانتقلت إلى البكالوريوس .. إبدأ في الترتيب لتعييني معك في شركة كيما بعد عام.

تلقى حمدي الرسالة بسعادة غامرة، وأرسل رده المسهب في خطاب مطول يعد بعمل المستحيل، والبدء الفوري .. حقيقة .. منذ اللحظة لكي يجمعهما الزمن من جديد.

احتفل الثلاثي كما كانوا يصطنعون المناسبات للاحتفال .. أعدوا وجبة الكباب الشهرية المحببة لهم، صحبتها زجاجات البيرة ومجموعة من علب السجائر واثنتان من أروع من دخلن الشقة منذ افتتاحها، وهموا ببدء الوليمة حين صرخ حنفي آهة عالية مشحونة بالألم، أفزعت الموجودين .. تكررت الصرخات وتوالت في تسارع دون فرصة للرد على تساؤلات الرفاق عما يحسه .. عاد برأسه إلى الخلف حتى استقرت على الأرض، فمددوا ساقيه وأعادوا السؤال عما حدث، لم يجب وانخفض الصوت مع ازدياد الآلم وخف حتى انقطع، وتفصدت حبات العرق البارد على جبينه، وتحسس شقيقه جبينه فوجده بارداً.. بارداً، وأمسك عبد الشافي معصمه فلم يجد به نبضاً.

انصرفت المرأتان وبقى حسني إلى جوار جسد أخيه الممتد على أرض الغرفة بجوار الطعام والشراب، وانطلق عبد الشافي إلى مسكن ممدوح ليطلب منه الإتصال بشقيقه الدكتور سامي على عجل، وكان لحسن الحظ متواجداً فاصطحبهما إلى شقة الأحرار، وقبل أن يكمل الكشف على حنفي، ألقى إليهم بقنبلة مسيلة للدموع:

- البقية في حياتكم.

ليست هناك كلمات قادرة على وصف الموقف ولا شرح نتائجه.

وحملت سيارة نقل الموتى الجثمان، إلى جواره رفيقي "الحياة" حيث نقلته إلى قريتهم بميت غمر. وبعد تشييع الجنازة، توالت الأخبار السيئة على عبد الشافي:

طلقت شقيقته وعادت بطفليها إلى بيت العائلة تعيش فيه، وتنكر ابن عمها ومطلقها لكل واجباته نحو الطفلين، كما تم فصل شقيقه الأصغر من

المدرسة لتكرار غيابه مع عجز الأم عن المتابعة، وتوقفت معاونة العم للأسرة في أي من شئونها بعد طلاق ابنه لابنتهم.

وخلال أيام الحداد الثلاثة قرر عبد الشافي أنه لن يكون بوسعه مداومة الدراسة في القاهرة بعد عامين من الفشل واحتياج الأسرة لوجوده وسطهم رعاية لشقيقته المطلقة وطفليها وشقيقته الثانية في سن الزواج، وأمه التي هدَّها الهم، وأسأمها الغم .. وكذلك متابعة المصدر الوحيد لدخلهم؛ الأرض التي تأبَّي عمهم عن رعاية مصالحهم فيها.

وسأله حسني:

- إمتي ح نسافر عشان ننهي متعلقاتنا بالشقة اللي مش ح أقدر أعيش فيها لوحدي؟

وعادت الإبتسامة من جديد على شفتي عبد الشافي، وأجاب متهكما:

- متعلقات؟! هي الشقة فيها متعلقات؟ دي مصاريف نقل الدولاب والسرير قد ثمنهم مرتين ثلاثة، ولا قصدك اللايحة اللي أحنا معلقينها على الباب عشان تنقلها مطرح ما حتسكن، ولا مفاتيح الشقة اللي حاتسلمها لصاحبها؟

سافر يا حسني ولا ما تسافرش .. ما تروحش ناحية الشقة وصاحب البيت حايفرح ويكسر ورانا زير .. أما الناس اللي حاييجوا ويشدوا الفتلة عشان يخشوا حايلاقوا الباب ما بيفتحش عشان الساكن الجديد أكيد حايركب كالون جديد، وله مفاتيح.

ربنا يسامح حنفي ويرحمه .. ويرحمنا ويرحم شقة الأحرار وأيامها.

****

الفهـــرس

القصـــة	رقم الصفحة
• مقدمة	٣
• بلا عودة	٥
• الوزير المحلل	٣٣
• حبيب الفقراء	٤٥
• قلب الحلاق	٥٧
• عازف العود	٧٥
• شقة الأحرار	٨١

رقم الإيداع

٧٣٧٦/ ٢٠١٤